شـــــعره

كان أبو فراس يعجب بالشعر الجيد ، ويطرب له ، ويحس برقته ، كما يحس برقة السندس والحرير ؛ ويشعر أمام القوافى الجيدة ، بما يشعر به الصادى ، اهتدى إلى بارد الماء ؛ ويقف عند اللفظ وفق إليه قائله ، كما يقف الجوهرى ، اهتدى إلى لؤلؤ مكنون . كتب إلى ابن عمه مرة يقول له :

وردت منك يابن عمى هدايا تتهادى فى سندس ، وحرير
بقواف ، ألذ من بارد المـا ء ، ولفظ ، كاللؤلؤ المنثور

ويرى الشعر هبة ، لا تخلق من عدم ، ولا تتكلف بالسير على قواعد العروض ، فهؤلاء الذين فقدوا تلك الموهبة ، يبدو على شعرهم الإجهاد والتكلف ؛ فخير الشعر عنده ما انساب على لسان قائله . قال يهجو بعض متكلفى المكارم :

تكلفوا المكرمات كداً تكلف الشعر بالعروض

قصائد أبى فراس ومقطوعاته ، تتحدث غالباً عن تجربة شعورية واحدة ، لا اضطراب فيها ولا تشويش ، وتتضافر الأبيات على توضيح هذه التجربة ، ونقلها إلى القارئ مرتبة ، كما أحس بها منشئها ، فقصائده ذات وحدة لا يستطرد فيها ، ولا يولد معنى من آخر . ويطيل إذا كانت التجربة لديه متشعبة النواحى ، كثيرة الأجزاء . ويقتصر على بيتين أحيانا ، لنقل ما أحس به . ولا يشوش عليه هذه الوحدة إلا أنه قد يبدأ قصائده بالغزل ، ولكنك إذا تركت هذا الغزل جانبا ، وجدت الوحدة متسقة واضحة خذ مثلا هذه الأبيات ، التى يشتاق فيها إلى حلب :

سقى ثرى حلب ما دمت ساكنها يا بدر ، غيثان : منهل ومنبجس
أسير عنها ، وقلبى فى المقام بها كأن مهرى ، لثقل السير ، محتبس

هذا ، ولولا الذى فى قلب صاحبه من البلابل ، لم يقلق به فرس
كأنما الأرض والبلدان موحشة ور بعها ، دونهن ، العامر ، الأنس
مثل الحصاة التى يرمى بها أبدا إلى السماء ، فترقى ، ثم تنعكس

فأنت تراه يدعو — على عادة العرب — بالسقيا لحلب ، ولا يرضى أن يسقيها ، ما دام يسكنها من يهواه ، إلا غيثان منهمران ، ثم يحدثك عن هذا النزاع النفسى ، الذى دار فى قلبه ، عند ما اضطر إلى مفارقتها ، ونفسه وهواه فى المقام بها ، فمضى عنها متثاقلا فى سيره ، لشدة نزوعه إلى تلك المدينة الحبيبة إليه ، حتى لكأن مهره حبيس مقيد ، وإنه لم يغادر حلب إلا مضطرا ، دفعه إلى الخروج عنها تلك البلابل التى تهيجه ، وتحول بينه وبين الاستقرار حيث يهوى ، وهو — حيثما سار — يرى الدنيا موحشة فى عينيه ، ولا يجد العمران والأنس ، إلا فى ربعها المحبوب ، ومن أجل ذلك هو منجذب إليها ، مندفع نحوها بقوة ، لا يستطيع الإفلات منها ، مثله فى ذلك مثل حصاة ، تدفعها إلى السماء ، فتندفع ، ولكنها لا تلبث أن تعود إلى مستقرها على الأرض .

تلمس من ذلك وحدة التجربة ، وتضافر أجزاء القصيدة على إيضاحها .

وها هى ذى إحدى قصائده التى أنشأها فى أول عهده بالأسر ، وهى من أشهر قصائده الدائرة على الألسن . افتخر فيها وتكلم عن حادث أسره .

اتبع الشاعر النظام التقليدى فى بناء القصيدة ، فبدأ قصيدته بالغزل الذى استوحى معانيه من موقفه أسيرا ، تضطرم نفسه ألما من التقيد بعد الحرية ، ولكنه يكظم هذا الألم ، ويحاول أن يستره عن أعين الناس جميعا ، حتى إذا أجنه الليل ناجى نفسه بألمه المكبوت ، وبكى شوقا إلى الحرية المفقودة ، وحنيناً إلى عهد الانطلاق كما يريد ، وربما اشتد به الحنين إلى ذلك فناجى الحرية ، وسألها متى تعود إليه ؟

هذا هو الجو الذى سيطر عليه ، عندما أنشأ غزل هذه القصيدة ؛ فاستهل الغزل

بعض معانيه منه ، فتسمعه يقول :

أراك عصىّ الدمع ، شيمتك الصبر ... أما للهوى نهى عليك ولا أمر ؟ !
بلى ، أنا مشتاق ، وعندى لوعة ... ولكن مثلى لا يذاع له سرّ
إذا الليل أضوانى[1] بسطت يد الهوى ... وأذللت دمعاً ، من خلائقه الكبر
تكاد تضىء النار بين جوانحى ... إذا هى أذكتها[2] الصّبابة والفكر

ويقول :

كأنى أنادى دون ميثاء[3] ظبيةً ... على شرف ظمياء[4] ، جللها الذّعر
تجفّل[5] حينا ، ثم تدنو كأنما ... تنادى طَلا[6] بالواد ، أعجزه الحضر[7]

وباقى الغزل فخر بمثاليته فى الحب ، ونقاش بينه وبين من يحب ، يمتّ بسبب وثيق إلى هذه المثالية ، فهو وفىّ لها برغم إصغائها إلى الواشين ، يجفو داره فى سبيل حبّه لدارها ، بل يحارب قومه الأعزاء فى سبيل هواها ، وهو خاضع لحبّها ، يقبل راضيا أن يتوب إليها من ذنب لم تجنه يداه ، ثابت على الحب لا يستفزه الطيش ، ولا يدفعه إلى النّفرة والإعراض . أما ما دار بينه وبين حبيبته فيؤكد هذه المثالية فى الحب أيضا ، فبينا هى تتدلّل ، وتتعنّت فى أسئلتها ، إذا به يجيب فى رفق متحمّلا الإدلال والتّعنّت ، راضيا لا يتسخط ولا يتبرم :

فعدت إلى حكم الزمان ، وحكمها ... لها الذنب ، لا تجزى به ، ولى العذر

ومن هذا تظهر الصلة الوثقى بين غزل القصيدة وهدفها ، فالقصيدة فخر بخلاله وسجاياه ، وغزلها فخر بما يتحلى به فى الحب من صفات المحب الصادق فى حبّه ، الوفى لمن يهواه ، الخاضع له ، المتقبّل لحكمه وإن كان ظالما .

وقد يتوهم متوهم أن من تغزل فيها أبو فراس لا تستحق الحب ؛ لأن لها فى الهوى قتلى كثيرين ، وليس ذلك بصحيح ، لأنها لم تقل : إنى أحب

---

(١) أضوانى : آوانى . (٢) أذكتها : أوقدتها . (٣) الميثاء : الأرض السهلة.
(٤) الظمياء من الشفاه : الذابلة فى سمرة . (٥) تجفل : تند وتشرد.
(٦) الطلا : ولد الظبية ، والجمع أطلاء . (٧) الحضر : نوع من العدو .

كثيرين ، بل قالت : إن لها محبين كثيرين ، فمن أنت بينهم ؟ وذاك يدل على مدى ما تتمتع به الحبيبة من جمال يبهر المعجبين ، وذلك هو ما قصد إليه الشاعر ، عندما أجرى على لسانها هذا السؤال .

واستطاع الشاعر أن ينتقل فى لباقة من الغزل إلى الفخر ، فإن سؤال الحبيبة موجهاً إليه ، هو : من أنت ؟ مع أن فتى مثله ، مع وضوح حاله ، وشهرته بين بنى قومه ، لا يدع محلا لهذا السؤال ؛ فأخذ الشاعر يحدثها عن مفاخره ، وذيوع شهرته ، التى لا تدعه نكرة مبهما ، يجهل أمره ، ولا يعرف قدره ، فقال :

فـــلا تنكرينى يا ابنة العم ؛ إنه ليعرف من أنكرته البدو والحضر

ثم مضى يعدد لها مفاخره ، وإن الصلة لوثقى بين الغزل والفخر ، فمن طبيعة الرجل أنه يحب الزهو أمام المرأة ، وأن يظهر أمامها فى مظهر كامل مثالى .

وأول ما افتخر به الشاعر فروسيته ، التى تتجلى فى ميدانين : معارك القتال ، وتقدير المرأة وإجلالها ، وقد أجاد أبو فراس فى تصوير هذه المفخرة ، فهو قائد مظفّر ، اعتاد أن يقود جيشه إلى النصر والنجاح ، لا يقنع وهو يقود جيشه بأن يشرف عليه ، بل يخوض ميدان القتال، بسيف ظامىء إلى دماء العدو ، ثم هو واثق بشجاعته ، لا يدهم حيا غاب رجاله ، ولا يفاجىء عدوا لم ينذره من قبل ، ولا يخشى حصنا يزهو بمنعته ، ومع هذه الشجاعة الباسلة ،لا يلبث أن ينثنى عن عقاب العدو ، وأن ينزل راضيا عن الغنيمة ،إذا شفعت لديه إحدى نساء الحى ، إذ يستقبلها فى بشر ، ويردها فى عفاف ، ظافرة بكل ما تريد . وتلك هى الفروسية المثلى فى ذلك العصر : شجاعة فى ميدال القتال ، واحترام للمرأة وتقدير . وقد عبر عن ذلك فى قصيدته بأبلغ أداء ، إذ قال :

وإنى لنزال بكل مخـــــوفة كثير إلى نزّالهـــا النظر الشزر
فأظمأ ، حتى ترتوى البيض والقنـا وأسغب ، حتى يشبع الذئب والنسر
وساحبة الأذيال نحوى لقيتهـــا فلم يلقها جهم اللقـــاء ولا وعر

وهبت لهـــا ما حازه الجيش كله ورحت ، ولم يكشف لأثوابها ستر

والشاعر يفتخر بأن قيمته تنبع من صفاته الذاتية ، وسماته الطبيعية ، لا من مال مكتسب تذهب بذهابه ، فلا يبعث المال فيه زهوا ، ولا يضعضع الفقر همته ، فيثنيه عن الكرم :

ولا راح يطغينى بأثوابه الغـــنى ولا بات يثنينى عن الكرم الفقر

وإن الصلة وثيقة بين هذا البيت وسابقه ، الذى حدثنا فيه عن نزوله عن الغنيمة راضيا مغتبطا ، فوضح لنا نفسيته التى دفعته إلى ذلك ، بأن المال ليس له أثر عظيم ، ولا قيمة كبيرة لديه .

وكان الحديث عن أسره طبيعيا ، فى هذه القصيدة التى تغنّى فيها بشجاعته وإقدامه ، لأنه أسر نتيجة لهذه الشجاعة والإقدام ، كما أن الأسر لا يغض من قيمة هذه الشجاعة ، ولا يضع من شأنها . وقد حدثنا الشاعر عن نفسيته عندما أحيط به ، وما دار فى هذه النفسية من تفكير وعزم وتصميم ، ومضى يحبّذ الرأى الذى ارتآه ، ويدعم المنهج الذى سلكه ، فى تفضيل الأسر على الفرار ، وقد شغله أمر الدفاع عن رأيه هذا ، فأطال فيه ، ولا سيما أن كثيرين عابوا رأيه ، وكان يفضلون له أن يفرّ . وذكر ما أبلاه فى المعركة من بلاء حسن فى قتال العدو ، ليبيّن أنه لم يؤسر ، حتى بذل كل ما يمكن بذله فى المعركة : من تقتيل فى العدو ، وتحطيم قواه . وإذا كان أبو فراس يؤمن بالقضاء والقدر ، فهو يرى أسره قضاء قضى عليه ، وقدرا نزل به ، ولم يأت ذلك من جهل لديه بفنون القتـــال ، أو ضعف فى جنوده :

أسرت ،وما صحبى بعزل لدى الوغى ولا فرسى مهر ، ولا ربّه غمر

ولـكن إذا حم القضاء على امرئ فليس له بر يقيه ، ولا بحر

وقال أصيحابى : الفرار ، أو الردى فقلت : هما أمران ، أحلاهما مر

ولـكننى أمضى لما لا يعيبنى وحسبك من أمرين خيرهما الأسر

ومن المرجح أنه أنشأ هذه القصيدة فى أول عهده بالأسر ، فإنها خلت من عتاب سيف الدولة ، والشكوى من قومه ، وظلال الهم والألم التى رأيناها تظلل شعره ، بعد أن طال أسره ، بل إنها لتتحدث عن أمل وطيد فى أن يسرع قومه إلى فدائه ، لأنهم وهم المشتبكون دائما مع العدو ، سوف يجدونه ضروريا لهم ، لا يستطيعون الاستغناء عنه ، وليس عندهم من يملأ مكانه ، أو يسد الفراغ الذى تركه . وتدل على نفس لم يحطمها طول الأسر ، فهى تؤمل فى عودة سريعة إلى ميدان القتال ، يذوق فيها العدو ما ألفه : من طعن أبى فراس ، وهجومه عليه ، بعدده وعدته :

سيذكرنى قومى ، إذا جد جدهم وفى الليلة الظلماء يفتقد البدر
ولو سد غيرى ما سددت اكتفوا به وما كان يغلو التبر لو نفق الصفر (١)

ويختم الشاعر قصيدته مفتخراً بمجد أسرته الذى بناه بسيوفها ، ووجدت بذل النفوس رخيصاً فى سبيل نيله . وإن مكانة الأسرة الحمدانية ، وتصديها للدفاع ضد الروم حيناً ، والدفاع عن الخلافة العباسية ، التى كانت يومئذ هى السلطة الدينية ، التى يستمد كل سلطان منها سلطانه ، والتجاء هذه الخلافة حيناً إلى حماية هذه الأسرة العربية ؛ لتدافع عنها ، وتحميها — خلق ذلك كله شعورا بالعزة والزهو فى نفس هذه الأسرة ، عبر عنه أبو فراس بقوله :

أعز بنى الدنيا ، وأعلى ذوى العلا وأكرم من فوق التراب، ولا فخر

ومن هذا العرض ، يتبين كيف كانت أجزاء القصيدة متسقة ، يرتبط فيها الجزء بصاحبه ، ويسلم بعضها إلى بعض ، مما يدل على أن الترتيب فى عرض التجربة الشعورية ، كان من صفات أبى فراس الفنية . وقد طرز الشاعر قصيدته ببعض الحكم ، وربما كان مقلدا فى ذلك للمتنبى ، يتخذها الشاعر مؤيدة لأفكاره ، من مثل قوله :

---

(١) الصفر : النحاس .

ولكن إذا حم القضاء على امرىء فليس له بر يقيـــه ، ولا بحر

ويمتاز شعر أبى فراس أيضاً ، بوحدة النسج غالباً ، فلا تجد فيه بيتاً من حرير ، وآخر من قنب ، ولكن الجمال موزع هنا وهناك ، لا يرتفع محلقا ، ولا ينحط مسفا ، وسوف نرى أن ما فيه من مظاهر الضعف ، لا ينزل به إلى الحضيض .

وعند الشاعر قدرة فنيـة على استخدام الألفاظ ، والأساليب الموحية ، والإتيان بالقافية فى مكانها ، لا تأسره ، ولا تخضع أفكاره لها . خذ مثلا كلمة « غنج » فى قوله :

أحسن من قهوة معتقـة بكف ظبى مقرطق غنج

لترى قوة دلالتها فى هذا الموضع ، وقوله :

فبت أعل خمرا ، من رضاب لها سكر ، وليس لها خمار

إلى أن رق ثوب الليل عنا وقالت : «قم ؛ فقد برد السوار»

فانظر جمال قوله : «رق ثوب الليل» ، ليدل به على قرب بزوغ النهار .

ولرغبته فى أن يجعل شعره موحيا بإحساسه ، قل استخدام الألفاظ الغريبة عنده ، حتى لا تقف عثرة ، بينه و بين قارئه ، ولكنه أحيانا لا يجد بدا من استخدامها ، فترى كلمة « عذافر » بمعنى الشديد من الإبل ، و « عراعر » بمعنى السيد ، و « ناجر » لشهور الصيف ، و « زراور » جمع زروار ، بمعنى البطريق ، وغير ذلك .

ولكنى لا أنكر أن التوفيق خانه فى استخدام بعض الألفاظ والأساليب ، فمن ذلك كلمة « غير » فى قوله :

ولله عندى فى الإسار وغيره مواهب ، لم يخصص بها أحد قبلى

وقوله :

وإنا لنلقى الخطب فيك ، وغيره بموفق عند الخطوب ، معان

فإنها لا توحى إلى النفس بفكرة محددة . وكلة «أدنى» بمعنى أقرب فى قوله :

أما أنا أعلى من تعدون همة و إن كنت أدنى من تعدون مولدا

فى بعض الروايات ، لأنها توحى بمعنى الانحطاط ، ولعل الذى دفعه إلى استخدامها كلمة أعلى فى الشطر الأول .

و إحدى كلمتى (حين ولما) زائدة فى قوله :

أخذت فى تطلب العلات حين لما رأت مشيب شواتى

وكذلك كلمتا المكتسى المرتدى ، فى قوله :

بأبي الغزال المكتسى ثوب الجمال ، المرتدى

وكلمتا العاتق والهادى ، فى قوله :

ألا ياربة الحلى على العاتق والهادى

وتلك ألفاظ يكمل بها الوزن فحسب .

كما أن وصفه الشيب بأنه الذى فى الذوائب ، فى قوله :

أراهن يبدين الصدود عن الفتى إذا ما بدا الشيب ، الذى فى الذوائب

وصف لا قيمة له ، كوصفه العزم بأنه غير كاذب ، بعد أن وصفه بأنه صادق ، فى قوله :

شفيت بعزم صادق ، غير كاذب ورمح ردينى ، وأبيض صارم

كما نلمس التفاهة والضعف فى الشطرين الأخيرين للبيتين التاليين :

وقد كنت ذا علم بما يصنع الهوى وما جاهل شيئاً ، كمن هو عالمه

بنينا من العلياء مجدا مشيدا وما شائد مجدا ، كمن هو هادمه

وعذره أن ذلك من شعره ، وهو صغير ، قبل أن يبلغ العشرين

وأكثر أبو فراس من إلحاق علامة الجمع للفعل ، إذا كان فاعله جمعا ، كقوله :

وعندى صدق الضرب فى كل معرك وليس علىّ إن نبون المضارب

وقوله :

ولا أنا راض إن كثرن مكاسبي إذا لم تكن بالعز تلك المكاسب

وقوله :

نتج الربيع محاسنا أنقحنه غر السحائب

وغير ذلك كثير ، وجمهور النحاة يضعفون هذا الأسلوب ، وإن كان سائغاً مقبولا عند أبى فراس .

ولأبى فراس كلمات محبوبة ، أكثر استخدامها ، من بينها كلمة رسيس بمعنى ابتداء الحب ، وأراغ بمعنى أراد ، والزراور ، ولعله وجد فى جرسها ما ينم عن سخريته بهذه الطائفة . وأكثر كذلك فى المدح ، من استخدام كلمة قرم بمعنى السيد ، ومشيع بمعنى ممدح مدعو له .

كان شعر أبى فراس طبيعيا لا يقصد فيه إلى الزينة قصداً ، يضحى من أجلها بوضوح الفكرة ، أو جلاء المعنى ؛ ومن أجل هذا لا تحس بتكلف فيما يأتى به ، من صناعة لفظية تعرض له ، ولا تكاد تتبين هذه الصناعة ، إلا إذا وقفت تتلمسها تلمساً ، وإن شئت أن ترى ذلك فاستمع إلى قوله :

وتغضب حتى إذا ما ملكت ، أطعت الرضا وعصيت الغضب

وقوله :

إن الغزالة والغزالة أهدتا وجها إليك ، إذا طلعت ، وجيدا

وقوله :

لا تشعلنّ ، فما تدرى بحرقته أأنت عاذله ؟ أم أنت عاذره ؟

وقوله :

دان إلى سبل الندى والعلا ناء عن الفحشاء والباطل

لترى ما فيه من صناعة لفظية ، بعيدة عن التكلف . كما أنه كان عندما يقتبس من شعر غيره ، يمهد له تمهيداً جيداً ، يضع به ما يقتبسه فى موضعه . ومع

ذلك لا تجد هذه الصناعة اللفظية ، إلا قليلة لا تدخل أبا فراس ، فيمن يعنون بها ، أو يحتفلون بمعالجتها .

و بعد فشعر أبي فراس يتسم بمسحة من الجمال تكسوه كله ، ووحدة فى القصيدة ، لا تشتت ذهن القارىء ، ولا تستر عنه المعنى ، وصدق فى التعبير عن العاطفة ، تحببه إلى سامعه وتعطفه عليه ، و بعد عن الزخارف ، التى ربما توحى إلى النفس بأن قائل الشعر ، يرمى إلى التلاعب بالألفاظ ، لا إلى إظهار عواطفه .

ولشعره منذ الصبا هذه الخصائص ، فى ديوانه كثير من القصائد التى أنشأها قبل أن يبلغ العشرين ، ترى فيها ذلك النضج المبكر ، و إن كنت تجد فيها أحيانا غرور هذه السن ، التى لم تتمرس بعد بتجارب الأيام ، كما فى قوله لابن عمه ، المهلهل أبى زهير :

سل الدهر عنى ، هل خضعت لحكمه وهل راعنى أصلاله[١] وأراقمه[٢] ؟
وهل موضع فى البر ما جبت أرضه ولا وطئته من بعيرى مناسمه[٣] ؟

ويحسن بى الآن أن أتناول أغراض شعره ، وأن أدرس سمات كل غرض منها وخصائصه .

---

(١) أصلال : جمع صل بكسر الصاد وهى الحية أو الدقيقة الصفراء .
(٢) أراقم : جمع أرقم وهى أخبث الحيات وأطلبها للناس .
(٣) مناسم : جمع منسم كمجلس : خف البعير .

أغراض شعره

نقرأ فى ديوان أبى فراس قوله :

الشعر ديوان العرب أيضاً ، وعنوان الأدب
لم أعد فيه مفاخرى ومديح آبائى النجب
ومقطعات ، ربما حليت منهن الكتب
لا فى المديح ، ولا الهجاء ، ولا الجون ، ولا اللعب

وإذا تغاضينا عن كلمة « أيضا » وهى قلقة فى هذا الموضع ، وجدناه يردد ما قاله الأقدمون ، من أن الشعر ديوان العرب ، خلدوا فيه مآثرهم ، وضمنوه حياتهم وتحاربهم . ثم يحدد ما تناوله من الأغراض فى شعره ، فيذكر أنه لم يتعد تسجيل مفاخره ، ومفاخر آبائه الأمجاد ، ومقطعات يتحلى بها جيد الكتب ، والمقطعات فى ديوانه إنما هى فى الحكمة والغزل والوصف ، أما المديح والهجاء والمجون ، فلم تكن من بين ما يقصد إليه من الأغراض .

صدق أبو فراس إلى حد بعيد ، فإن معظم شعره كان فخرا بنفسه ، ومدحا لآبائه . ومن شعره أيضاً ما قاله فى الغزل والحكمة والوصف ، أو دبجه رسائل إلى صحبه وأقاربه . أما الهجاء فلم يجر به قلمه ، اللهم إلا بيتين ، قالهما فى شاعر يدعى الشيظمى ، وهما :

فى الشيظمى غشاشة[1] ، وخساسة فإذا أدرت الكف فيه تهذبا
كالطبل ، ليس بمطرب ، حتى إذا كثر اللطام بجانبيه ، أطربا

وإلا ما كان من هجائه للعباسيين ، وقد سبق عرض هذه القصيدة ، عند الحديث عن تشيعه ، وإلا قصيدته التى هجا بها الروم ، عندما حاولوا مناقشته

---

(١) الغشاش بالكسر : أول الظلمة وآخرها .

فى الدين ، وقد سبق عرضها أيضا .

أما المجون فلم يتناوله إلا فى قطعة واحدة ، نقلناها عند حديثنا عن حظه من اللهو ، وأما المدح فقد وقف فيه عند سيف الدولة ، الذى كان الشاعر يعده العنوان الحديث لمجد أسرته ، ولم يتجاوز ذلك ، إلا إلى مدح من كانت بينه و بين الشاعر صلة أخوة أو صداقة .

ولعل الشاعر أنشأ تلك المقطوعة قبل الأسر ، فهى قطعة فرحة مفتخرة ، ولو أنه كان قد أنشأها بعد الأسر ، لضم إلى ذلك غرضاً آخر ، أطال فيه وأكثر ، هو غرض الشكوى والعقاب .

وواضح أن وقوف أبى فراس عند تلك الأغراض وحدها ، كان مما اقتضته حياته ، كأمير من أمراء الأسرة المالكة ، يترفع عن الهجاء الذى يكون بين متساويين ، وعن المدح لمن كان يعتقده أقل منه قدرا .

والآن نقف عند كل غرض قال فيه ، لنتبين ملامحه ، وندرس سماته .

الفخـــر

كان الفخر من أهم أغراض أبى فراس ، وقد رأيناه يرى الشعر ديواناً ، يسجل فيه مفاخره ، ومفاخر أسرته . ولقد كان نضجه فى هذا اللون من القول مبكراً ، مما يدل على أن شعوره بمكانة أسرته ومكانته ، كان مالئاً عليه جوانب نفسه ، فقد نظم وهو صبى أبياتاً ، تسجل ما جرى فى الموصل بين ابن رائق ، الذى دبر مكيدة لناصر الدولة ، يريد قتله ، فكان ناصر الدولة ، أسبق إلى الفتك به ، وكان ابن رائق قد قتل عمارة العقيلى ، وجماعة من نمير ، فقال أبو فراس :

لقد علمت « قيس بن عيلان » أننا ... بنا يدرك الثأر ، الذى قل طالبه
وأنا نزعنا الملك من عقر داره ... وننتهك القرم الممنع جانبـه
وأنا فتكنا بالأغر « ابن رائق » ... عشية دبت بالفساد عقاربه
أخذنا لكم بالثأر ثأر « عمارة » ... وقد نام لم ينهد إلى الثأر صاحبه

فأنت ترى قوة الأسلوب ، تتسق مع قوة الخاطر ، الذى أوحى بهذا الشعر ، وقوة الانفعال الذى استولى على الشاعر .

ولا غرابة أن يكون الفخر من أهم أغراضه ، فقد كانت عناصره مهيأة له ، ودوافعه عتيدة لديه ، فهو أمير من بيت ملك ، يحكم شمال الشام والجزيرة ، ومن أسرة بنت ملكها على أسنة رماحها ، وهو بطل من أبطال الحروب ، وقائد من خيرة قوادها ، وحاكم له مزايا باهرة ، وخلال ناضجة بارعة ، وتلك كانت أهم ينابيع فخاره ، فبأسرته الحاكمة يفتخر بقوله :

أتعجب أن ملكنا الأرض قسرا ... وأن تمسى وسائدنا الرقاب
وتربط فى محالسنا المذاكى[1] ... وتبرك بين أرحلنـــا الركاب
فهـذا العز أثبته العـــوالى ... وهـذا الملك مكنه الضراب

---

(١) المذاكى : الخيل التى أتى عليها بعد قروحها سنة أو سنتان .

ولا يرى أسرته قد خلقت لغير بناء الحمد وتشييد العلا :

لئن خلق الأنام لحسو كأس وطنبور ، ومزمار ، وعـود
فلم يخلق بنـــو حمدان إلا لمجـد ، أو لبأس ، أو لجود

ويشتد به الإعجاب بهذه الأسرة ، حتى ليراها أشرف الأسر ، لولا انتساب رسول الله إلى سواها ، فيقول :

وإنى لمن قوم ، كرام أصولهم بهاليل ، أبطال ، كرام المناسب
ولولا رسول الله ، كان اعتزاؤنا لأشرف بيت ، من لؤى بن غالب

ويملؤه الزهو بها ؛ حتى ليعتقد أن الواحد منهم ، يكون فى القبيلة ، فيصبح موئلها ، يسودها فى السلم ، ويحميها فى الغارة والحرب ، ويغدو موضع استشارتها ، إذا أبهم عليها السبيل ، ويصير ملجأ البائس والمعتر :

إذا كان منا واحد منا فى قبيلة علاها ، وإن ضاق الخناق حماها
وما اشتورت ، إلا وأصبح شيخها ولا حوربت ، إلا وكان فتاها
ولا ضربت بين القبـاب قبابه وأصبح مأوى الطارقين سواها

فلا غرو ، ونظرته إلى أسرته تلك النظرة ، أن يقول :

إنى امرؤ ببنى حمـدان مفتخر خير البرية ، أجدادا ، وأسلافا
إنى لمن معشر ما ضيم جارهم ولا رأى عندهم بؤسا ولا خافا
إن حالفتنا المعالى فهى قد علمت كانت لآبائنـا من قبل أحلافا

وكانت وقائعه التى انتصر فيها من مصادر فخره كذلك ، يسجلها مقترنة بأسماء الأماكن التى انتصر فيها ، والأشخاص الذين انتصر عليهم ، وكان سلوكه فى المعارك ، كفارس نبيل ، لا يعشق الحرب للحرب ، ولـكن للتأديب وتثبيت أركان النظام ، ثم لا يلبث أن يصفح ، إذا عاد العصاة إلى الطاعة وتابوا — من دواعى فخاره ، وكم أشـاد بشجاعته فى الحروب ، وتغنى بهـا ، وكان مثله الأعلى أن يـكون قائداً ممتـازا ، كما ذكرنا . أرسل إلى سـيف الدولة بعد

معركة انتصر فيها ، يقول له :

يا ضارب الجيش بى فى وسط مفرقه لقد ضربت بنفس الصارم العضب
لا تحرز الدرع عنى نفس صاحبها ولا أجير ذمام البيض واليلب
ولا أعود برمحى غير منحطم ولا أروح بسيفى غير مختضب
حتى تقول لك الأعداء راغمة : «أضحى ابن عمك هذا فارس العرب»

وقد يغريه الظفر بعدوه ؛ فيظن الدنيا كلها تحت إمرته وإمرة أسرته ، فيقول :

لنا الدنيا ، فما شئنا حلال لساكنه ، وما شئنا حرام
وينفذ أمرنا فى كل حى يقصيه ، ويدنيه الكلام

وكانت مواهبه كرجل ممتاز ، ينبوعا يمده بوسائل الفخر ، وقد عرفنا أنه كان شديد الإيمان بمواهبه ، والاعتداد بنفسه ، والثقة بجدارته أن ينال أسمى الآمال ، وأرفع المكانات ، إذ يقول :

فمثلى من نال المعالى بسيفه وربما غالته عنها الغوائل
وما المرء إلا حيث يجعل نفسه وإنى لها فوق السماكين جاعل

ولأبى فراس قصيدة مطولة ، لا نظير لها فى الأدب العربى كله — على ما أظن — أنشأها فى الفخر ، وسبب إنشائها أن أحمد بن ورقاء ، أنشأ قصيدة يهنىء بها سيف الدولة ، بغزوة انتصر فيها ، ويفاخر مضر ، بأيام بكر وتغلب ، فى الجاهلية والإسلام ، وتغلب جد الأسرة الحمدانية ؛ فلما سمع أبو فراس تلك القصيدة ، أنشأ قصيدة يفتخر بحاضر أسرته ، ومجدها الطارف ، ويرى أن هذا المجد الحديث ، أخلق بالفخر من المجد القديم ، لأنه أضوأ منه سنا ، وأرفع شأنا ، وأنه لولا هذا المجد الحديث ، ما استطاع شاعر أن يملأ بالافتخار فمه ، يقول لأبى أحمد :

أبا أحمد ، مهلا ، إذا الفرع لم يطب فلا طيب يوم الإفتخار العناصر

أتسمو بما شادت أوائل وائل وقد غمرت تلك الأوالى الأواخر
وهل يطلب العز الذى هو غائب ويترك ذا العز الذى هو حاضر ؟ !

أنشأ أبو فراس قصيدته ، على ما أرجح — سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ، لأن قصيدة ابن ورقاء ، التى أوحت لأبى فراس بقصيدته ، كانت لتهنئة سيف الدولة بغزوة ، تمت فى صفر ، من ذلك العام .

بدأ تلك القصيدة ، بغزل تشم فيه رائحة الفروسية من ناحية ، وروح الفخر من ناحية أخرى ، ففيها يفتخر بعفته ، تلك العفة التى تحول بينه وبين انتهاك الحرم ، فكان غزل القصيدة مناسبا لجوها ، إذ تسمعه يقول :

وفى كلتى ذاك الخباء خريدة لها من طعان الدارعين ستائر
تقول إذا ما جئتها متدرعا : أزائر شوق أنت ، أم أنت ثائر ؟ !

ويقول :

فيا نفس ، مالاقيت من لاعج الهوى ويا قلب ، ما جرت عليك النواظر
ويا عفتى ، مالى ومالك ؟ كلما هممت بأمر ، هم لى منك زاجر
كأن الحجا ، والصون ، والعقل ، والتقى لدى لربات الخدور ضرائر
وكم ليلة خضت الأسنة نحوها وما هدأت عين ولا نام سامر
فلما خلونا ، يعلم الله وحده لقد كرمت نجوى ، وعفت سرائر

ثم ينتقل من الغزل ، إلى الفخر بنفسه ، والإشادة ببعد همته ، فيقول :

نفى الهم عنى همة علوية وقلب ، على ما شئت منه ، مؤازر
وأسمر ، مما ينبت الخط ، ذابل وأبيض ، مما يطبع الهند ، باتر

حتى إذا انتهى من ذلك ، وعدد ما أعده لنيل أمله : من الرماح والسيوف والخيل والإبل ، مضى إلى الفخر بأسرته ، وبادر بالإشادة برمز مجدها الحديث ، وهو سيف الدولة ، ليدل أبا أحمد على موطن الفخار الحق ، ولتكون إشادته

بالمجد القديم الذى بنته أسرته ، مدعما بهذا المجد المرئى الحاضر .

ولن يجد الشاعر — ولأسرته فخار حى — غضاضة فى الحديث عما لأجداده الأقربين من ذكر حسن ، وشهرة و بعد صوت ، فعدد مآثر جده ، وصوره أميراً عربياً ، يسود عشيرته ، و يجمع شملها بجوده ، وحسن سياسته ، و يتحمل دم قتلاها ، ويسوق دياتهم ، فتلتف عشيرته حوله ، و يجتمع أمرها بعد فرقة . فإذا انتهى من حديث جده ، أخذ يعدد مآثر أعمامه ، ويشير إلى وقائعهم فى مختلف النواحى ، حتى إذا شفى نفسه من حديث أعمامه ، ختمه بقوله :

فإن يمض أشياخى ، فلم يمض مجدها ولا دثرت تلك العلى ، والمآثر
نشيد كما شادوا ، ونبنى كما بنوا لنا شرف ماض ، وآخر حاضر

وتلك مقدمة للحديث عن وقائع ناصر الدولة وسيف الدولة ، بدأه بتسجيل فضلهما على أمير المؤمنين ، فقد رداه إلى سرير الملك ، بعد أن شرده الثوار عنه ، وعدد وقائع سيف الدولة مع أعداء أمير المؤمنين ، وهنا ، تتبين العصبية العربية ، التى كانت تتميز من الغيظ ، بغضا للترك وسطوتهم الغاشمة ، إذ يقول :

وصب على الأتراك نقمة منعم رماه بكفران الصنيعة غادر

و يمضى فى تعداد مآثر الأمير ، ووقائعه فى الشام مع الإخشيد ، وعلى حدود مملكته مع الروم ، وفى بلاد العرب مع القبائل الثائرة ، والقرامطة ، ولا يتبع فى ذلك الترتيب التاريخى ، فقد يقدم ما تم سنة أربعين ، على ما حدث سنة ست وعشرين مثلا . ونلاحظ أن معظم ما سجله أبو فراس فى تلك القصيدة ، لم يتناوله بالحديث فى قصائد خاصة ، بل اكتفى بما ذكره فيها . وسنعود إلى الحديث فى ذلك ، عندما نوازن بينه و بين المتنبى .

و بعد أن انتهى الشاعر من حديثه الطويل عن سيف الدولة ، أخذ يشيد بمآثر إخوته . ومآثر بنى عمه الأحياء ، ويختم حديثه عنهم بقوله :

لنا فى بنى عمى ، وأحياء إخوتى على حيث سار النيران ، سوائر
وإنهم السادات ، والغرر التى أطول على خصمى بها وأكابر

وهو فى هذه القصيدة الطويلة التى تبلغ خمسة وعشرين ومائتى بيت ، يرى نفسه غير ناهج منهج الشعراء ، الذين يضفون على ممدوحيهم ، فضائل ليست لهم ، وأنه ليس إلا مسجلا لفضله ، وفضل عشيرته :

نطقت بفضلى ، وامتدحت عشيرتى وما أنا مدّاح ، وما أنا شاعر

الغـــزل

غزل أبى فراس قصير النفس ، لا يكاد يتجاوز ما أنشأه للغزل قصدا البيتين والثلاثة غالباً ، مكتفيا بذلك فى التعبير عما ألم به ، من انفعال سريع .

أعرف شاعرنا الحب ؟ أم أن غزله تقليدى ، لاينبعث عن حب ولا عاطفة ؟

أرجح أن الشاعر عرف الحب وتأثر به ، بدليل هذه القطع التى نظمها خاصة فى النسيب ، ولم يقف عند حد المقدمات التى يفتتح بها بعض قصائده ، ولم يكن أبو فراس ممن ينشىء الشعر إلا ترجمة لعاطفته ، وتعبيراً عما فى نفسه . ولـكننا نـكاد نلمس أن هذا الحب ، ما كان يشغل من هذه النفسية الشاعرة إلا حيزاً محدوداً صغيراً ، لأن هذا القلب الـكبير كان فى شغل بكبار الأمانى وسـامى الآمال ، ولم يدع ذلك منه إلا فراغا يسيرا تشغله هذه العاطفة القوية

عرف شاعرنا الحب ، ولعل من بادلها تلك العاطفة كانت قريبة له ، وربما كانت جميلة بنت ناصر الدولة ، فإنه أنشأ قصيدة يودع بها بعض أهله [1] ، وقد خرجت تسعى إلى الحج . وهذه القصيدة تفيض بعواطف حارة متدفقة ، ينم عنها بكاؤه ، ويذكيها فى صدره ما امتازت به تلك الفاتنة من غرام بالصون ، وحب للحجاب ، حتى ليكاد وجهها تخفى معالمه على خدرها ، وها هو ذا يقص علينا حديثه ، يوم سافرت تلك الحبيبة المصونة ، ولعلها جميلة :

أشيعه ، والدمع من شدة الأسى ... على خده نظم ، وفى نحره نثر
رجعت ، وقلبى فى سجاف غبيطه ... ولى لفتات نحو هودجه كثر
وفيمن حوى ذاك الحجيج خريدة ... لها دون عطف الستر من صونها ستر
وفى الـكم كف ، لا يراها عديلها ... وفى الخدر وجه ، ليس يعرفه الخدر

---

(١) راجع هامش ديوان أبى فراس ص ١٨٥ .

وقد سجل فى هذه القصيدة إحساسا صادقا حيا ، و إن شدة شعوره بحيوية تلك الحبيبة ، جعلته يحس كأنها تبعث الحياة فيما يحيط بها ، حتى فى النبات والجماد ، فيقول :

فهـل عرفات عارفات بزورها وهل شعرت تلك المشاعر والحجر ؟
أما اخضر من ريحان مكة ما ذوى أما أعشب الوادى ؟ أما أنبت الصخر؟

وقد أنشأ هذه القصيدة فى الغزل خاصة ، وهى أطول شعره فيه . وربما ذاق من هذا الحب ، ما شجاه حينا وأضناه ، حتى صح له أن يقول :

أمعنية بالعذل ، رفقـاً بقلبه أيحمل ذا قلب ، ولو أنه صخر ؟!
عذيرى من اللائى يلمن على الهوى أما فى الهوى، لو ذقن طعم الهوى، عذر !؟
ومنـكرة ما عاينت من شحوبه ولا عجب ما عاينته ، ولا نـكر
وقائلة : ماذا دهاك تعجبا ؟ فقلت لها : يا هذه ، أنت والدهر
أبالبين ، أم بالهجر ، أم بكليهما تشـارك فيما ساءنى البين ، والهجر

كان صدق إحساس أبى فراس بالحب ينبوعا لتعبيرات صادقة عن عواطف صـادقة ، فهو يخشى على حبيبه أن تمسه العيون بأذاها ، فيستحلفه أن يرد عليه لثامه :

أيا سافرا ، ورداء الخجل مقيم بوجنته ، لم يزل
بعيشك ، رد عليك اللثام ، أخاف عليك جراح المقل
فمـا حق حسنك أن يجتلى ولا حق وجهك أن يبتذل

ويتقبل ظلم حبيبه ، بنفس راضية ، بل متلذذة بهذا الظلم :

و بعض الظالمين و إن تناهى شهى الظلم ، مغفور الذنوب

ويقر أنه مذنب ، و إن لم يجن ذنبا ، ويتوب عن إثم لم يقترفه :

أقر له بالذنب ، والذنب ذنبه ويزعم أنى ظـالم فأتوب
ويقصدنى بالهجر علماً بأنه إلىّ ، على ما كان منه، حبيب

ويجد فى الهجر القصير الأجل لذة تجدد الحب :

إنما يحسن التهاجر يوما فإذا كان دائماً فقبيح

كل هجر يدوم يوما إلى الليل ، ويفنى ، فذاك هجر مليح

ويتخيل حبيبه وقد غاب عنه ، فيصوره فى شعره ، ويتساءل : أينساه ، وقد غاب عنه :

وبالدارين إنسان له فى القلب داران

إذا ماماس فى القر طق ، يسعى بين أخدان

رأيت البدر قدبا ن ، على غصن من البان

وخدا يجتنى الور د به ، فى كل إبان

ألا يا صاحبى رحلى ، بالله أجيبانى

ترى من لست أنساه على الحالات ينسانى ؟!

ويتحمل إدلاله ، ويحفظ عهده ، لأنه ليس له عنه معدى ولا متحول :

نبوة الإدلال ليست عندنا ذنبا يعد

قل لمن ليس له عهد : لنا عهد ، وعقد

جملة تغنى عن التفصيل : مالى عنك بد

إن تغيرت فما غير منا لك عهد

ويقبل ذلة الحب ، برغم أنه أمير من بيت الملك :

وباخلة أنالتنى قليلا وقد يرضى القليل من البخيل

قنعت به ، وكنت أظن أنى عزوف النفس عن نيل قليل

ولكنى وجدت الحب يكسو عزيز القوم أثواب الذليل

وما كان يرى ذل الحب إلا عزاً :

بنفسى التى أخفت ، مخافة أهلها وداعى ، وأبدت حين أبدت لنا رمزاً

فلم أر مقتولين : مثلى ومثلها أذلا ، وإن كانا لعمر الهوى عزا

ويستسلم للحب ، وإن قوبل بالجفاء :

وكنى الرسول عن الجواب تظرفا ولئن كنى ، فلقد علمنا ما عنى
قل يارسول ، ولا تحاش ، فإنه لا بد منه ، أساءبى ، أم أحسنا
الذنب لى فيما جناه ؛ لأننى مكنته من مهجتى ، فتمكنا

ولكنه يثور ضد الحب ، إذا كان فيه غدر وخيانة :

الآن حين عرفت رشدى ، واغتديت على حذر
ونهيت نفسى فانتهت ، وزجرت قلبى فانزجر
ولقد أقام على الضلالة ، ثم أذعن ، واستقر
الحب فيه مذلة إلا على الرجل الذكر
هيهات ، لست أبا فراس ، إن وفيت لمن غدر

وتلك ثورة نفسية ، تدرك الحب إذا رأى الغدر ممن يحب .

هذا ، وأرجح أن الحب الذى كان بينه و بين قريبته كان حباً طاهراً عفيفاً ، تحوطه شدة الصيانة من الحبيبة . وأغلب الظن أن هذه الليالى التى غلب الخمر فيها عقل من يهوى ، والتى يصف واحدة منها بقوله :

وزيارة من غير وعد فى ليلة طرقت بسعد
بات الحبيب إلى الصبا ح معانقى ، خداً لخد
يمتار فىَّ وناظرى ما شئت من خمر وورد
قد كان مولاى الأجل ، فصيرته الراح عبدى
ليست بأول منة مشكورة للراح عندى

لم تكن مع هذه القريبة المحتشمة .

وقد ذكرنا أن أبا فراس قد أخذ بنصيب من اللهو ، ولعله كان يرى أن الحب لا يحول بينه و بين المتعة ، إذا ظفر بها .

ومن مجموع شعر أبى فراس ، نستطيع أن نرسم صورة للمرأة المثالية عنده ،

فهى البيضاء ، المتوردة الخد ، الفاترة الجفن ، ذات الشعر الفاحم ، المشوقة القد ، الناهدة الصدر ، الهيفاء الخصر ، فى غير هزال .

وتغزل أبو فراس بالغلمان كذلك ، وكانت البيئة التى عاش فيها تساعد عليه ، وترك من هذا الغزل مقطوعات قصيرة كذلك ، بعضها يفيض بالرقة والحنان ، يقول :

الورد فى وجنتيـــه والسحر فى مقلتيـه
وإن عصانى لسانى فالقلب طوع يديه
يا ظالما ، لست أدرى أدعو له ، أم عليه ؟!

واسم هذا الغلام منصور ، وله غلمان أخر ، وإن كان لمنصور الغلب على قلب الشاعر ، ولسنا ندرى جنسيته على وجه التحقيق ، ولا إن كان هو المقصود بتلك الأبيات التى يتغزل فيها بمملوك فارسى ، وقد استغل الشاعر ، فيها معركة ذى قار ، التى كانت لقبائل العرب ، ومن بينها تغلب قبيلة الشاعر على الفرس ، وقد أحسن هذا الاستغلال حين قال :

بأبى شادن ، بديع الجمـــال أعجمى الهوى ، فصيح الدلال
سل سيف الهوى على ، ونادى : يا لثأر الأعمام والأخـوال
كيف أرجو ممن يرى الثأر عندى خلفا من تعطف ووصال
مادرت أسرتى بذى قار أنى بعض من جندلوا من الأبطال
أيها الملزمى جرائر قومى بعد ما قد مضت عليها الليالى
« لم أكن من جناتها علم الله ، وإنى بحرّها اليوم صـالى »

ولأبى فراس ، غير هذا الغزل الحقيقى ، غزل تقليدى يفتتح به قصائده ، ولا يريد به غالبا التعبير عن عواطف تجيش فى نفسه . وهو فى هذا الغزل يتشبه بالأقدمين فى وقوفهم على الديار ، وسؤالهم الأطلال :

على ربع العامرية وقفـــة يملى على الشوق والدمع كاتب

فلا ، وأبى العشاق ، ماأنا عاشق إذا هى لم تلعب بصبرى الملاعب
ومن مذهبى حب الديار لأهلها وللناس فيما يعشقون مذاهب

وفى هذا الغزل التقليدى يبدو الضعف ، والمغالاة ، والصناعة اللفظية ، وتكرير المعانى المألوفة ، ولا تحس بروح الغزل القوية المتدفقة ، وأى قوة فى قوله :

قلوب فيك دامية الجراح وأكباد مكلمة النواحى
وحزن لا نفاد له ، ودمع يلاحى فى الصبابة كل لاح
أتدرى ما أروح به ، وأغدو فتاة الحى : حى بنى رياح
ألا يا هذه ، هل من مقيل لضيفان الصبابة ، أو مراح

وترى التشبيهات المتداولة بالشمس والغزالة والأقحوان ، كما تلحظ فى هذا الغزل أيضاً التناقض ، وعدم الوقوف عند المعقول . نجد ذلك فى قوله :

إن الحبيب الذى هام الفؤاد به ينام عن طول ليل ، أنت ساهره
ما أنس لا أنس يوم البين موقفنا والشوق ينهى البكا عنى ، ويأمره
وقولها ، ودموع العين واكفة : « هذا الفراق الذى كنا نحاذره »

فحبيب تكف دموعه ، ويحذر الفراق ، لا ينام طول ليل يسهره صاحبه .

نلحظ فى غزل أبى فراس ، سواء الحقيقى منه والتقليدى ، أنه غزل فارس ، تلمس فيه روح الفتوة ، وتجد منثوراً بين أبياته لغة الفرسان المحاربين ، ويأخذ من هذه اللغة تشبيهاته واستعاراته ، فتسمعه يقول :

أغرن على قلبى ، بخيل من الهوى فطارد عنهن الغزال المغازل
بأسهم لفظ ، لم تركب نصالها وأسياف لحظ ، ماجلتها الصياقل
وقائع قتلى الحب فيها كثيرة ولم يشتهر سيف ، ولا هز ذابل
أراميتى ، كل السهام مصيبة وأنت لى الرامى ، فكلى مقاتل

ويقول متعجباً ، كيف يمد حبيبه جيش سقامه بالهجر ، فينصره :

بالله ربك ، لم فتنت بصبره ونصرت بالهجران جيش سقامه

وفى سبيل طاعة الحب ، قد استشهد الصبر والسلو :

مالى بكتمان هوى شادن عينى له عين على القلب
عرضت صبرى وسلوى له فاستشهدا فى طاعة الحب

ويشبه طرة من يحب بالزرد المضاعف :

ومرتد بطرة مسدولة الرفارف
كأنها مسبلة من زرد مضاعف

وأبو فراس حين يجعل الغزل مقدمة لأغراض أخرى ، يجتهد غالبا فى أن يجعل روح الغزل مناسبة لروح الموضوع الذى يقصد إليه ، وهل أنسب من هذا الغزل العاتب يبدأ به عتابه لسيف الدولة :

أما لجميل عندكن ثواب ؟ ! ولا لمسىء عندكن متاب ؟ !

أو أنسب من البدء بإهداء التحية لمن يحبها ، فى قصيدة يحيى بها إخوانه فى الموصل ، إذ يقول :

سلام ، رائح ، غادى على ساكنة الوادى

أو من البدء بهذا الغزل الحزين ، الذى يشكو الفراق ، فى قصيدة أرسلها إلى أخيه ، وهو أسير :

فديتك ، إنى للصبابة صاحب وللنوم ، مذ زال الخليط ، مجانب
وما أدعى أن الخطوب فجأننى لقد خبرتنى بالفراق النوائب

ولكن الشاعر فى أغلب الأحيان ، ما كان يحسن التخلص من الغزل إلى الغرض المقصود ، بل كان انتقاله فجائيا ، وهو فى ذلك يشبه البحترى زعيم شعراء الشام ، فها هو ذا — مثلا — يتغزل ، ويختم غزله بقوله :

وقد عاديت ضوء الصبح حتى لطرفى عن مطالعه ازورار

ثم ينتقل إلى الفخر قائلا ، من غير أن يحسن التخلص :

ومضطغن يراود فى عيبا سيلقاه إذا سكنت وبار

وفى بعض الأحيان يحسن التخلص ، كما فى تلك القصيدة التى بعث بها إلى ابن عمه أبى زهير ، وفيها يقول :

يا أخى يا أبا زهير ، ألى عندك عون على الغزال الغرير ؟!

لم تزل مشتكاى فى كل أمر ومغيثى ، وعمدتى ، ومشيرى

وهكذا يمضى فى حديث ابن عمه .

وقبل أن أختم الحديث عن غزله ، أشير إلى ما يبدو فى هذا الغزل حيناً ، من شعور أبى فراس بنفسه محبوباً ، وأنه ليس شخصاً عادياً ، ولكنه محب جدير أن يقابل بغبطة من يحبه ، وأن يضم عليه بالنواجذ ، فتسمعه يقول :

أجملى يا أم عمرو زادك الله جمالا

لا تبيعينى برخص إن فى مثلى يغالى

بل لقد تدلل مرة على من يحب ، حتى شكته إلى إحدى جاراتها :

قامت إلى جاراتها تشكو بذل وشجا

أما ترين ذا الفتى مر بنا ما عرجا

إن كان ما ذاق الهوى فلا نجوت إن نجا

وليس ببعيد أن تعجب بأمير وسيم مثله ، بعض أولئك الجميلات ، اللاتي كن يرينه فى غدواته وروحاته .

الوصـــف

لم يكن الوصف من الأغراض الرئيسية فى شعر أبى فراس ، و إنما هى نتف موجزة ، يرسلها فى الحين بعد الحين .

و إن فى مناظر الشام ، وما يحيط بالأمير الشاب ، من مظاهر الحضارة والترف والعمران ، لما يثير شاعرية الشاعر ، ويوحى إليه بأفضل القول ، لولا أن شاعرنا شغل بنفسه عما يحيط به .

وهو يكتفى غالبا بأن يصف الشىء كما تراه العين ، ولا يمزج ذلك بشعوره و إحساسه إلا فى القليل ، كقوله يصف جسرا عقد بمنبج :

كأنما المـــاء عليه الجسر درج بياض ، خط فيه سطر
كأننا يوم استتب العـــبر أسرة موسى ، يوم شق البحر

فهو يمثل الجسر الدقيق بسطر ضئيل فى صحيفة بيضاء ، ويشبه ما يحس به العابرون عليه بقوم موسى ، يسيرون على خوف أن تغمرهم المياه وتغرقهم .

وقل أن يمزج شعوره ، أو يستفيض فى بيان هـذا الشعور ، عندما يقف ، أمام منظر من مناظر الطبيعه : فهذه النار التى يجد المقرور فيها لذة الدفء ، ويحس بالغبطة بقربها ، يغفل أبو فراس إلا عن منظرها ، فيقول :

لله برد ما أشـد ، ومنظر ما كان أعجب
جاء الغلام بنـاره حمراء فى جمر تلهب
فـكأنما جمع الحـلى ، فمحرق منه ، ومذهب
ثم انطفت فـكأنها ما بيننا ند مشعب

فهو وصف حسى ، يصف ما تراه العين ، وينسى وصف الشعور بدفء النار ، فى يوم شديد البرد .

وعنـد ما يصف زهر الربيع على ضفاف البرك المليئة بالمـاء ، يكتفى بأن يقول :

انظر إلى زهر الربيع   والماء فى برك البديع
وإذا الرياح جرت عليـه فى الذهاب وفى الرجوع
نثرت على بيض الصفا   ئح بيننا حلق الدروع

فهو لم يزدنا شعوراً بجمال أزهار الربيع ، ولم يزد على أن طلب منا أن ننظر إليها ، أما الماء فلم يزد على أن شبهه ببيض الصفائح ، فإذا مر عليه الريح جعله يشبه الدرع ، وليس من وجه يربط بين الاثنين سوى اللون والشكل ، اللذين تلحظهما العين .

وقل مثل ذلك فى وصفه للجلنار[1] المشرق على أعالى الشجر :

كأن فى رءوسه   أصفره وأحمـره
قراضة من ذهب   فى خرق معصفرة

وهو يتشبه فى ذلك بابن المعتز . وكذلك الحال فى وصفه البرك بقوله :

وكأنما البرك المـلاء تحفها   أنواع ذاك الروض والزهر
بسط من الديباج بيض فروزت   اطرافهـا بفراوز خضر

فليس تصورنا لبسط الديباج البيض ، قد فروزت أطرافها بالاخضرار ، مما يزيد شعورنا عمقا بهذه البرك ، فضلا عما بين البرك والبسط من خلاف ، فمياه البرك كالمرآة تعكس ما يطل عليها من السماء الزرقاء الصافية ، أو الملبدة بالسحب ، وأين ذلك من بسط الديباج البيضاء .

ولـكنه رق عندما وصف هبوط الليل ومغرب الشمس ، فقال :

وفتيان صدق ، أملوا أن أزورهم   وما منهم إلا كريم ، ومنصف
فوافيتهم ، والليل نشوان زاحف   إلى سائر الآفاق ، والشمس تطرف

---

(١) زهر الرمان .

فتصوير هبوط الليل على الكون ، بأنه يزحف فى بطء وهدوء إلى سائر الأفاق قوى ، وكذلك تصويره نظرة الشمس إلى الكون ، بعد رحلة طويلة طول النهار ، بأنها تطرف بعينها ، مودعة هذا الكون لاهثة ، أو متألمة لهذا الوداع .

وقد يكون من أجمل أوصاف أبى فراس قوله :

وبقعة من أحسن البقاع ... يبشر الرائد فيها الراعى
بالخصب والمرتع والوساع ... كأنما يستر وجه القاع
من سائر الألوان والأنواع ... مانسج الروم «لذى الكلاع»[1]
من صنعة الخالق لا الصناع ... والماء منحط من التلاع
كما تسل البيض للصراع ... وغرد القمرى للسماع
ورقص الماء على الإيقاع ... ونشر البهار فى البقاع

وهو وصف تصويرى ، وإن كنت أجد ناشزاً فى هذه الصورة الوديعة ، تشبيهه الماء بسيوف تسل للصراع ، بين تغريد الحمام ورقص الماء ونشر البهار .

وقد أنشأ أرجوزة ، يصف فيها الصباح والسحاب ، ووصفه للصباح يزيدنا شعوراً بقوته وغلبته ، حين جعله طالب ثأر من الظلام ، ولعله فى هذا التشبيه ، وتشبيه الماء ببيض السيوف ، متأثر بحياته فى الحرب والقتال .

وارتفع أبو فراس فى وصفه المطر ، فقد صور رعده وبرقه ، حين قال فى أرجوزة :

من أنف الوسمى نوء صادقه ... منبجس ، مرتجس صواعقه
إذا ادلهم وأضاء بارقه ... وهدرت على الثرى شقائقه
والوحش فى أرجائه تسابقه ... كأنها مجفلة ، وسائقه
أهدت إلى أربعه ودائقه ... قشيب روض وبجت نمارقه
ولبست من زهر حدائقه ... سموط حلى فصلت عقائقه

---

(١) ذو الكلاع : من أزواء اليمن .

كما صور إطباق السحاب على الأرض ، ثم انقشاعه ، صورة قوية فى قطعة يقول فيها :

حتى إذا ما اتصلت أسبابه وضربت على الثرى قبابه
وامتد فى أرجائها أطنابه وشرقت بمائها شعابه
أجلى عن وجه الثرى اكتئابه وحليت فى نورها رحابه

وفى قول أبى فراس : اتصلت أسبابه ، تصوير لتجمعه فى قوة ، وفى ضرب قبابه على الثرى ، وامتداد الأطناب فى أرجائه ، تصوير لقربه وثباته ، والمهم أن هذا التصوير ، يعطى المرء شعوراً بما يريد الشاعر تصويره ، وإحساساً عميقاً به ، وتلك مهمة الشاعر الأصيلة .

وللشاعر قطعة ، وصف فيها منازله بمنبج ، متخيلا لها ، عندما كان أسيراً فى بلاد الروم ، وقد ذكرنا بعضها فى باب أسره ، ورأيناه قد أكثر فيها من ذكر أسماء الأماكن الحبيبة إلى نفسه ، وذكر الأماكن يثير فى نفس الشاعر ما دار فيها : من ذكريات عذبة محببة إلى القلوب .

و بعد فليس فى أوصاف أبى فراس ، ما يضعه فى مصاف شعراء الوصف .

أرجوزته فى الصيد

كان أبو فراس مغرما بالصيد ، يقضى فيه بعض وقت فراغه ، مع ثلة من صحبه ، شأنه فى ذلك شأن كثير من الأمراء الفرسان ، يجدون فى الصيد ملهاة سامية ، وقد أنتج لنا هذا الحب أرجوزة مطولة ، يصف فيها الشاعر يوما قضاه فى الصيد . وتكاد تكون هذه الأرجوزة وحيدة فى اللغة العربية ، بطولها ، وباشتمالها على هذا الوصف القصصى ، الذى فيه حوار ونقاش .

وهذه الأرجوزة تمتاز عن أرجوزة المتنبى التى أنشأها فى الطرد ، وبدأها بقوله :

ومنزل ليس لنا بمنزل ولا لغير الغاديات الهطل

فإن أبا الطيب قد أنشأ أرجوزته ، وقد سمع وصف الرحلة ، أما أبو فراس فقد وصف ما عمل . وكان المتنبى قليل الرغبة فى الخروج إلى الصيد ، على عكس أبى فراس ، الذى كان يجد فى الصيد وسيلة من وسائل السرور ، يرفه بها عن نفسه متاعبه . وكان أغلب حديث المتنبى وصفاً للكلب الذى طارد الظبى ، أما أبو فراس ، فلم يقف عند ذلك . كما أن أرجوزة أبى فراس أضعاف أرجوزة أبى الطيب .

أرجوزة أبى فراس من بين هذه القطع ، ذات الوحدة فى الفكرة والغرض . ولعله اختار بحر الرجز ؛ لأنه البحر التقليدى لهذا النوع من الوصف . واختار التشطير ، بأن تكون القافية ملتزمة فى شطرين فقط ؛ ليطيل حتى يستوفى ما عنده ، أما المتنبى فقد التزم اللام فى كل شطراته .

بدأ أبو فراس أرجوزته ، بذكر ما يختلج فى صدر أمير طموح مثله ، مثله الأعلى نيل المجد وتذوق السرور ، ويأسف أبو فراس أنه لم يظفر بهذه السعادة

إلا فى أيام قلائل ، منها هذا اليوم الذى يصفه بتلك الأرجوزة :

ما العمر ما طالت به الدهور العمر ما تم به السرور
أيام عزى ، ونفاذ أمرى هى التى أحسبها من عمرى
ما أجور الدهر على بنيه وأغـدر الدهر بمن يصفيه
لو شئت مما قد قلن جدا عددت أيام السرور عدا
أنعت يوما سر لى بالشام ألذ ما مر من الأيام

ها هو ذا أبو فراس يستعد للرحلة ، فدعا بالصقار ، وطلب منه أن يهيء له سبعة كبارا : اثنان للأرانب ، وخمسة للغزلان ، كما طلب أن تهيأ كلاب الصيد والفهاد والبزاة ، وأن يعد الطباخ له ما هو فى حاجة إليه من الطعام والشراب ، حتى إذا أعد ذلك كله ، بدأ الأمير يختار صحابته ، وهنا يقف طويلا ، ليحسن اختيارهم ، فلا يريد أن يستصحب الثقلاء ، ولا عدداً كثيرا . وانتهى الأمر باختيار زهاء عشرين صاحبا ، من أهل الفضل والنجابة ، ولننصت إليه يحدثنا عن اختيار صحبه :

بالله ، لا تستصحبوا ثقيلا واجتنبوا الـكثرة والفضولا
ردوا فلانا ، وخذوا فلانا وضمنونى صيدكم ضمـــانا
فاخترت لما وقفوا طويلا عشرين ، أو فويقها قليـلا
عصابة ، أكرم بها عصابة معروفة بالفضل والنجابة

ها هى ذى معدات الرحلة قد تمت ، وها هم أولاء الصحب يحفون بالأمير ، وها هو ذا الركب يسير متجهاً إلى عين باصر ، وهو مكان يبعد عن منبج مسيرة يوم ، قضاه الركب فى بهجة وطرب ، حتى وصلوا إليه قبيل الغروب ، وهناك ضربوا خيامهم ، وأقاموا ليلتهم ، حتى إذا تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، بدأ الدراج يرسل أغانيه العذبة فى الفضاء ، غافلا عما يضمره له القضـاء :

وأخذ الدراج فى الصياح مكتنفاً من سائر النواحى
فى غفلة عنا، وفى ضلال ونحن قد زرناه بالآجال
يطرب للصبح، وليس يدرى أن المنايا فى طلوع الفجر

وما هو إلا أن أدت الجماعة صلاة الصبح، حتى بدأت البزاة تخرج، والخيول تسرج، والفهاد يمضى منفرداً، متربصاً للظباء، وأبو فراس يسير فى صف من الرجال. وما كادت الجماعة تستعد، حتى أقبل غلام يعلن رؤيته لظبية، ظنها أبو فراس يقظى، ولكنها كانت نائمة، فلم يخطئها أبوفراس بنباله. وهنا تضج الكلاب تطلب الصيد جاهدة.

وقد استصحب أبو فراس معه بعض غيد الغلمان، فإذا فاخر أبو فراس الجماعة ببازله، طالبا المبارزة به، تقدم أحد هؤلاء الغلمان، مبديا استعداده لهذا البراز، فيذهب مع أبى فراس وراء النهر، وتطير دراجة أمامهما؛ فيرسل عليها الغلام بازيه، ولكنه يخطئها، فيتهكم عليه أبو فراس:

صحت: أهذا الباز، أم دجاجة ؟! ليت جناحيه على دراجة

فيحمر وجه الأغيد، ويعتذر بسوء المكان، ويطلب منه أن يذهبا إلى مكان مكشوف؛ فيتبرم أبو فراس ويقول:

نحن جميعاً فى مكان واحد فلا تعلل بالكلام البارد

ويزيد فى التهكم به، فيطلب منه ألا يستصحبه مرة أخرى فى الصيد، بل الأجدر به أن يترك فى الدار مع الدباشى[١] والقمارى[٢]، فيزداد خجلا، فيرق له أبو فراس، ويخرجه من ورطته، بأن يعيره آخر، أفضل مما معه، على أن يكون عارية مضمونة، يشهد عليها من حوله. وهنا يصف أبو فراس هذا البازى، فيقول:

جئت بباز حسن، وهبرج[٣] دون العقاب وفويق الرمج[٤]

---

(١) طيور تقرقر.
(٢) ضرب من الحمام.
(٣) سمين.
(٤) طير للصيد.

زين لرائيـــه ، وفوق الزين ينظر من نارين فى غارين
كأن فوق صدره والهادى[1] آثار مشى الذر فى الرماد
ذى منسر فخم ، وعين غائرة وأفخذ مثل الجبـــال وافرة

ثم ، لتنصت إلى هذا المزاح الذى دار بينه و بين هذا الأغيد الذى سر لامتلاك هذا البازى ، وأبو فراس يستحلفه أن يعيده إليه ، ولـكن الغلام يأبى أن يحلف ، معتذراً بأن كلمته كيمينه ، و ينتهى الأمر بأن يعلن أبو فراس هبته له بقبلة منه ، فيصد الغلام و يخجل ، و يأسف أبو فراس على هذا المزاح ، ولا يزال بالغلام حتى يمسح عنه الخجل :

سر ، وقال : هات ؛ قلت مهلا احلف على الرد ؛ فقال : كلا
أما يمينى فهى عندى غالية وكلمتى ، مثل يمينى ، وافيه
فقلت : خـذه ، هبة بقبلة فصد عنى ، وعلته خجلة
ثم ندمت غاية الندامة ولمت نفسى أكثر الملامة
على مزاحى ، والرجال حضر وهو يزيد خجلا ، ويحمر
فلم أزل أمسحه ، حتى انبسط وهش للصيد قليلا ، ونشط

وهذا نوع من المزاح الذى كان يحدث فى مثل تلك الرحلة .

و يظهر أن عين باصر ، لم تشف نفسهم من الصيد ، فانصرفوا عنها إلى نهر الوادى ، والطير فيه عدد الجراد ، وهناك أرسل شاهينين ، فأصابا أربعة طيور : ثلاثة خضرا وأبقع ذبحوها ، وأرسلوا الشاهينين مرة أخرى ، فجدلا أربعة مثل الأول ، وظل أبو فراس وصحبه يصطادون .

حتى أخذنا ما أردنا منهـا ثم انصرفنا ، راغبين عنها
إلى كراكى بقرب النهـــر عشرا أراها ، أو فويق العشر

وينصرف البازى إلى الـكراكى فيصيدها ، و يصيح أبو فراس بالطباخ ألا

---

(١) العنق .

يتوانى فى إحضار ما اصطادوه وطهيه .

لم يكتف أبو فراس فى رحلته إلى الصيد بما نال ، بل مضى ينتجع الصحراء ، يطلب فيها الوحوش والظباء ، فانتجع وادياً ليس بمطروق ، قد رواه الوسمى ، فعن له فيه سرب من الظباء ، فأطلق عليه صقوره وفهاده ، حتى صاد منها ما صاد ، وحين أخـذ حظه من الصحراء ، انصرف إلى الجبل ، يصطاد منه الوعول والـكباش ؛

ثم انصرفنا ، والبغال موقرة ... فى ليلة مثل الصباح مسفرة
حتى أتينا رحلنـــا بليل ... وقد سبقنا بجياد الخيـــل
ثم نزلنا ، فطرحنـــا الصيدا ... لمـــا عددنا مائة وزيدا
فلم نزل نشوى ، ونقلى ، ونصب ... حتى طلبت صاحيا ، فلم أصب
شربا ، كما عن ، من الزقاق ... بغير ترتيب ، وغـير ساقى
ولم نزل سبع ليـال عددا ... أسعد من راح ، وأحظى من غدا

وهكذا استطاع أبو فراس أن يقص علينـا متعة ، من متعـه ، فى تلك الأرجوزة الرائعة .

الشكوى والعتاب

بينا فيما مضى كيف أثر الأسر فى أبى فراس ، فجعله حزيناً شاكياً ، وقد ظل طول مدة أسره ، يرسل من الشعر ما يدل على قلب يذوب أسى ، ونفس تتحرق شوقا إلى الحرية ، وتحقيق ما ترجوه من الأحلام ، وكان هذا الأسر أكبر باعث له على الشكوى وعتاب سيف الدولة ، وقد كان يرق أحياناً فى عتابه ، ويستعطف ، وحينا يقسو ويشتد ، ولسنا فى حاجة إلى أن نطيل فى ذلك ، فقد ضربنا عليه الأمثلة ، فى الفصل الذى عقدناه لأبى فراس فى الأسر .

ولم يكن عند أبى فراس ما يحمله على الشكوى قبل أسره ، اللهم إلا ما كان بينه وبين بعض أبناء أسرته : من نفور ، رأينا صورة منه فى الفصل الذى عقدناه ، لبيان صلته بأسرته ، وإلا ما كان يلقاه من أصدقائه : من غدر ونكث بالعهود ؛ فكان يضج بالشكوى ، قائلا :

أعيا على أخ ، وثقت بوده ... وأمنت فى الحالات عقبى غدره
وخبرت هذا الدهر خبرة ناقد ... حتى أنست ، بخيره ، وبشره
لا أشترى بعد التجارب صاحبا ... إلا وددت بأننى لم أشره
من كل غدار يقر بذنبه ... فيكون أعظم ذنبه فى عذره

وإلا ما كان يلقاه عليه حساده وأعداؤه ، وما كانوا يذيعونه عنه ، حتى لقد امتلأ قلبه حينا باليأس من الناس ووفائهم ، فقال :

لمن أعاتب ؟ مالى ؟ أين يذهب بى ... قد صرح الدهر لى بالمنع والياس
أبغى الوفاء بدهر ، لا وفاء له ... كأننى جاهل بالدهر ، والناس

الرثـــاء

ليس لأبى فراس من المراثى إلا القليل ، فمجموع ماله فى الرثاء والعزاء عشر قطع ، رثى غلاما له بواحدة ، وأخته بأخرى ، وأمه بثالثة ، وعزى سيف الدولة فى ابنه وأخته بثلاث ، ورثى أبا المرجى بن ناصر الدولة باثنتين ، وأبا وائل بقصيدة ، وأبا العشائر ببيتين .

ويحق لنا أن نتساءل هنا عن السبب ، الذى من أجله لم يرث أبو فراس ابن عمه سيف الدولة ، مع ما كان يضمره له من الحب والوفاء ، كما ذكرنا ، ولعل سبب ذلك يعود إلى شغل أبى فراس بتحقيق المطامع ، التى تأججت فى صـدره ، بعد وفاة سيف الدولة ، تلك المطامع التى شغلته حتى عن تقدير مركزه التقدير الصحيح ، فغامر ، وانتهت مغامرته بالإخفاق ، على أنه مما لا شـك فيه عندى أن أبا فراس قد تغير فى أعماق قلبه ، من ناحية ابن عمه ، لطول إهماله إياه ، فى الأسر ، ويدلنا على ذلك أنه لم يشكر سيف الدولة بعد خلاصه ، ولم يمدحه .

رثى أبو فراس غلاما له ببيتين ، فيهما تلك اللوعة ، التى تلم بقلب الأب ، عند ما يعجل بابنه قبله ، فيتمنى أن لو كان هو مكانه ، قال :

أعزز على بأن يبيت موسـدا وأبيت أندبه مع الإخوان
ولقد وددت بأن أكون مكانه تحت التراب ، وأن يكون مكانى

ولسنا نستطيع بهذين البيتين ، أن نضع أبا فراس مع هؤلاء الشعراء ، الذين أجادوا تصوير لوعتهم ، على فقد أبنائهم كابن الرومى ، وأبى الحسن التهامى .

ورثى أخته رثاء موجزا ، أودعه ألمه وحسرته ، ويظهر أن هذه الأخت لم تـكن متزوجة ، ولم تـكن شقيقة له ، بل كانت أخته لأبيه ، نفهم ذلك من

أنه لم يعز أحداً غير نفسه ، ولو كانت أخته لأمه أيضاً لعزاها ، أو لتحدث عن حزنها على ابنتها ، ولـكنه يتحدث عنها ، كأنه وحده المصاب بها ، إذ يقول :

عقيلتى استلبت من يدى ولما أبعهـــا ، ولما أهب
وكنت أقيـك ، إلى أن رمتك يد الدهر ، من حيث لا أحتسب

ولا أنـكر أن البيت الأول ضعيف ، فلم تجر العادة ببيع العقيلة أو هبتهـا حتى ينفى ذلك ، ولـكن لعله أراد ما أراده ابن الرومى ، حين رثى ابنه ، فأبدع ، إذ قال :

وما سرني أن بعته بثوابه ولو أنه التخليد فى جنة الخلد

ويظهر أن أبا فراس قد حزن على أخته حزناً بالغاً ، جعله يجد الموت سمة الوفاء :

أتزعم أنك خـــدن الوفاء وقد حجب الموت من قد حجب
فإن كنت تصدق فيما تقول ، فمت قبل موتك ، مع من تحب

وماتت أخت سيف الدولة ، وهو فى الأسر ، فأرسل إليه من مغتر به قصيدة يشاركه فيها حزنه وآلامه ، وقد أجاد التعبير عن هذه المشاركة ، حين قال :

بى بعض مابك : من حزن ومن جزع وقد لجأت إلى صبر ، فلم أجد
لم يمنعنى بعدى عنك من حزن هى المؤاساة فى قرب ، وفى بعد
لأشركنك فى البأساء ، إن طرقت كما شركتك فى النعماء ، والرغد

وسوف نوازن بين قصيدته وقصيدة المتنبى فى الغرض نفسه .

ولما طال حزن سيف الدولة على أخته ، كتب إليه :

قولا لهـذا السيد الماجد قول حزين ، مثـله ، فاقد :
هيهات ، ما فى الناس من خالد لابد من فقد ، ومن فاقد

كن المعزَّى ، لا المعزَّى به إن كان لا بد من الواحـــد

ولما مات أبو المكارم بن سيف الدولة ، رثاه ، وعزى أباه عنه ، ويبدو من شعر أبي فراس ، أن العنصر الغالب على سيف الدولة ، كان عنصر الجزع عند وفاة أخته ، وعنصر التسليم والصبر عند وفاة ابنه ، مما دعا أبا فراس إلى الإشادة بذلك ، فى قوله :

يبكى الرجال ، وسيف الدين مبتسم حتى عن ابنك تعطى الصبر، يا جبل

لم يجهل القوم منه فضل ما عرفوا لـكن عرفت من التسليم ما جهلوا

ولأبى فراس قصيدة عاطفية ، يرثى بهـا أبا المرجى جابر بن ناصر الدولة ، وكان رثاؤه منبعثاً عن حب ، تحسه فى قوله :

أأبا المرجى ، غير حزنى دارس أبداً عليك وغـير قلبى سالى

ولئن هلـكت ، فما الوفاء بهالك ولئن بليت ، فما الوفاء ببـــالى

ورثى أبا العشائر ، وقد مات أسيراً فى بلاد الروم ، ببيتين أجاد فى أولهما ، عندما ما قال :

أأبا العشائر ، لا محلك دارس بين الضلوع ، ولا مكانك نازح

فأنت تراه هنا يخاطبه بالهمزة ، التى هى لنـداء القريب ، وفى ذلك من الإشعار بقرب مكانه منه ، برغم موته ، ما أكده بعد ذلك ، بأن مكانه من قلبه لن ينمحى ، وأنه قريب منه ، مهما أمعن فى البعاد ، أما البيت الثانى وهو :

إنى لأعلم بعد موتك أنه ما مر للأسراء يوم صالح

فلامعنى للتوكيد فيه ، لأن الأسرى ، مهما لانت حياتهم ، لا يجدون أيامهم صالحة ، وهو معنى واضح ، لا حاجة إلى تأكيده ، ثم ما معنى أن أبا فراس عرف ذلك بعد موت صاحبه ، مع أن موته لايوحى بهذه الفكرة ، التى لا يحتاج فى الوصول إليها إلى موت أبى العشائر .

وسنتحدث عن رثائه لأبى وائل ، وسنوازن بينه و بين المتنبى فى ذلك ، فى الفصل الذى نعقده للموازنة بينه و بين المتنبى .

وقد سبق أن أفردنا فصلا خاصا برثاء أمه .

وليس فى رثاء أبى فراس كله نظرات عميقة ، فى فلسفة الحياة ، بل كله حديث عن عواطفه الشخصية .

الحكمة

لم يشتهر أبو فراس بالحكمة ، كما شهر المتنبي معاصره ، ولكنك مع ذلك ، تستطيع أن تلتمس هذه الحكمة ، فى ثنايا شعره ، وفى مقطوعات قصيرة أنشأها ، يسجل بها نظرة من نظراته ، فى الحياة والمجتمع . وتعليل ذلك يسير مقبول ، فأبو فراس لم يؤثر عنه أنه درس الفلسفة ، وتعمق فى كتبها ، كما أنه عاش بالشام ، وكان البحترىُّ الشاعرَ المفضل لديهم ، ولم يكن البحترى ممن يعنى عناية خاصة ، بهذا اللون من القريض ، وكان يعده خروجا على عمود الشعر .

والحكمة التى نجدها عند شاعر بنى حمدان ، تعبير عن فكرة مرت بخاطره ، أوحى بها إليه حادث عرض ، فسجلها ، وصاغها فى أسلوبه ، وساقها فى الموضع اللائق بها .

أبو فراس يرى الدنيا — كما ذكرنا — متقلبة لا تثبت على حال ، فالنعمة لا تدوم ، والأمور تنتقل من الضد إلى الضد .

هل ترى النعمة دامت لصغير ، أو كبير ؟ !

و إذا كانت الدنيا لا تثبت على حال ، فالواجب مقابلة أحداثها بالصبر ، وعدم المبالاة :

خفض عليك ، ولا تكن قلق الحشا مما يكون ، وعله ، وعساه

فالدهر أقصر مدة مما ترى وعساك أن تكفى الذى تخشاه

وتلك نظرة ، عميقة ، صادقة .

و يرى الموت خير ما يردع الإنسان عن ارتكاب الغى ، إذ هناك كلٌّ مجزى بعمله ، إن خيرا فخير ، و إن شرا فشر .

أما يردع الموت أهل النهى و يمنع عن غيه من غوى ؟ !

أما معاملته للنـــاس ، فالحزم عنوان حكمته ، وإن كان يرى إسداء النعمة أفضل ، مهما قوبلت بالنـكران :

فما نعمة مكفورة ، قد صنعتها إلى غير ذى شكر ، بما نعتى أخرى
سآتى جميلا ، ما حييت ، فإننى إذا لم أفد شـكرا ، أفدت به أجرا

ولا يرى الحلم مما يخرق الهيبة ، أو يشينها :

يقولون : لا تخرق بحلمك هيبة وأحسن شئ زين الهيبة ، الحلم
فلا تتركن العفو عن كل زلة فما العفو مذموم ، وإن عظم الجرم

ولـكنه ما كان يتردد فى استعمال الشدة ، إذا كانت ضرورية ، محمودة العاقبة :

ولست أرى فساداً ، فى فسـاد يجر على فريقيه صـــلاحا

أما اللئيم فما كان يرى الرفق فى معاملته إلا عجزا :

فى الناس إن فتشتهم من لا يعزك ، أو تذله
فاترك مجـاملة اللئـ ـيم ؛ فإن فيها العجز كله

وفى ديوانه حكم منثورة عن الصداقة والأصدقاء ، فهو يرى صلة الصداقة الصادقة ، فوق صلة الأخوة :

وما أخوك الذى يدنو به نسب لـكن أخوك الذى تصفو ضمائره

وفى سبيل هذه الصداقة ، تهون التضحية حتى بالنفس . والصداقة الحقة الخالصة ، هى التى لا تبتغى على ما تقدم أجرا ، ولا تحطمها العقوبة :

كذاك الوداد المحض ، لا يبتغى له ثواب ، ولا يخشى عليه عقاب

وخير الأصدقاء عنده ، هو هذا الذى يفيض بشره على صديقه . ويرى فى البشر والطلاقة ، خير ما يسل الضغينة من القلوب :

وأحب إخوانى إلى أبشهم بصديقه ، فى سره ، أو جهره
لا خير فى بر الفتى ، ما لم يـكن أصفى مشارب بره ، فى بشره
ألقى الفتى ، فأريد فائض بشره وأجـل أن أرضى بفائض بره

يا رب مضطغن الفؤاد ، لقيته بطلاقة ، فسلمت ما فى صدره

وحينا يدعو إلى الحذر من الناس ، وعدم الاغترار بما قد يبدونه من ود :

فلا تغترر بالناس ، ما كل من ترى أخاك ، إذا أوضعت فى الأمر ، أوضعا

بل يضج بالشكوى ، حين يخيب ظنه فى صديق ، فيعلن أن الصداقة إذا وضعت على محك الاختبار ، بان زيفها ، وقلة غنائها .

وكانت همته العالية مصدرا لنظرات صاغها حكمة ، فالإنسان جدير به أن يتسامى إلى معالى الأمور ، وليس العلا خفيا ، ولا الطرق إليه غامضة ، ولكن الإنسان يضل فى السعى ، فلا يصل إلى الهدف :

لعمرك ، ما طرق المعالى خفية ولكن بعض السعى ، ليس بقاصد

وأعظم ما يحتاج إليه المرء للوصول إلى المجد ، هو الجد ، و بذل المال ، و بدونهما لا تتحقق الآمال :

وكيف ينال المجد ، والجسم وادع وكيف يحاز الحمد ، والوفر وافر

ويقتنع بأن تحقيق الآمال ، لا يكون إلا بالاغتراب :

والمرء ليس ببالغ فى أرضه كالصقر ، ليس بصائد فى وكره

وقد بينا فيما مضى ، سر هذه النظرة .

ويرى النفوس المجاهدة فى حاجة أحياناً ، إلى أن تجلو عناءها ، بالهزل والمزاح ، على شريطة أن يكون مزاحا نبيلا :

أروح القلب ببعض الهزل تجاهلا منى ، بغير جهل

أمزح فيه ، مزح أهل الفضل والمزح أحياناً ، جلاء العقل

والمال لا يراد ، ولا يسعى إليه ، إذا كان الذل وفقدان العرض فى سبيله :

وما حاجتى فى المال ، أبغى وفوره إذا لم أفر عرضى ، فلا وفر الوفر

وليس الغنى إلا غنى النفس ، ولو ترك المرء لمطامعه العنان ، ما كفاه كل ما فوق البسيطة :

إن الغنى ، هو الغنى بنفسه ولو أنه عارى المناكب ، حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافيا فإذا قنعت ، فكل شىء كاف

وهو لذلك لا يقدر الناس إلا بجوهر نفوسهم ، لا بهذا العرض الزائل من المال :

غنى النفس لمن يعقل ، خير من غنى المال
وفضل الناس فى الأنفس ، ليس الفضل فى الحال

ولا ينال المجد إلا بالمخاطرة ، والإقدام ، وإن كان فيهما الموت والهلاك ، أما إيثار السلامة ، فمدعاة إلى الرضا بالذل والهوان :

فقلن له : السلامة خير غنم وإن الذل فى ذاك المقال

وتلك نظرة فارس إلى الحياة .

المـــدح

لم يمدح أبو فراس أحداً إلا سيف الدولة ، وقد ذكرنا حين تحدثنا عن صلته بأميره ، أن هذه الصلة كانت مؤسسة على الحب والإعجاب ، فلم يكن مدح أبى فراس لسيف الدولة منبعثاً ، إلا من عاطفة عميقة صادقة ، وقد ترك لنا فى شعره صورة للأمير ، لا تختلف عن الصورة التى رسمها له معاصروه من الشعراء، فهو أمير عربى ، وقف حياته على قتال أعدائه ، من العرب الثائرين حينا ، وأعدائه ، من الروم المجاورين لمملكته ، حينا آخر ، وهو فى ميدان القتال ، مقدام باسل . و إنك ترى هذه الصورة فى كل مدح ، أنشأه أبو فراس فى الأمير ، ولعل من أجمل هذه الصور قوله :

قد ضج جيشك من طول القتال به ... وقد شكتك إلينا الخيل ، والإبل
وقد درى الروم مذ جاورت أرضهم ... ان ليس يعصمهم سهل ، ولا جبل
فى كل يوم تزور الثغر ، لا ضجر ... يثنيك عنه ، ولا شغل ، ولا ملل

وهذا الجانب من جوانب حياة الأمير ، هو الذى كان يجذب انتباه الشاعر إليه ، أكثر من بقية جوانبه ، حتى إن ناحية الكرم ، وهى ناحية بارزة فيه تمام البروز ، لم تسترع نظر شاعرنا كثيراً ، فلم يرددها إلا قليلا ، مثل قوله فيه :

يا باذل النفس والأموال مبتسما ... أما يهولك ، لا موت ، ولا عدم ؟!

وتعليل ذلك يسير واضح ، فإن أميرا كأبى فراس ، لا يليق بكرامته أن يقرض من الشعر ، ما يشتم منه رائحة الاستجداء .

الاخوانيات

هذا ضرب من الشعر ، أجاد أبو فراس تصوير عواطفه و إخلاصه فيه ، فلقد ربطت صلة الود ، بينه و بين كثير من رجالات عصره وأقربائه ، وكان الشعر هو الرسول بينه و بينهم ، يتبادلونه إن فارق أحدهم صاحبه ، أو تاقى رسالة منه ، أو بدا له أن يعاتبه ، أو يستعطفه .

والظاهر أن أبا فراس ، كان ممن يحسن معاملة أصحابه ، ويخلص لهم ، و يضمر لهم فى قلبه فيضا من عواطف الصداقة الخالصة ، والود الثابت المتين ، ويحفظ التاريخ أسماء جماعة من الأصدقاء ، الذين أخلص لهم أبو فراس ، وأخلصوا له ، ومن هؤلاء أبو محمد جعفر ، وأبو أحمد عبد الله ، ابنا ورقاء الشيبانى ، و يقول عنهما الثعالبي : « إنهما من رؤساء عرب الشام ، وقوادها ، والمختصين بسيف الدولة ، وما منهما إلا أديب شاعر ، جواد ممدح ، و بينهما و بين أبى فراس مجاوبات » ، فيها الحب الخالص والإعجاب أحيانا ، وفيها العتب الرقيق حينا آخر ، يصدره بمثل قوله :

أتانى من بنى ورقاء قول ألذ جنى من الماء القراح
وأطيب من نسيم الروض ، حفت به اللذات : من روح ، وراح
وتبكى فى نواحيه الغوادى بأدمعها ، وتبتسم الأقاحى
ولو أنى اقترحت على زمانى لكنتم يا بنى ورقا اقتراحى

أما الإعجاب الذى كان يملأ قلوب هؤلاء الأصدقاء ، فتلمسه فى قول أبى فراس السابق ، وفى قول أبى أحمد ، يجيب أبا فراس عن قصيدته الرائية المطولة ، وفيها يقول :

تصفحت ما أنفذته ، فوجدته كما استودعت نظم العقود الجواهر

عرائس ، يجلوها عليك خدورها ولكنما تلك الخدور دفاتر

ومن هؤلاء قاضى حلب : أبو الحصين على بن عبد الملك ، قال ابن خالويه : « كان بينهما مودة أكيدة ، ومكاتبات بالشعر » ، ويظهر أن أبا الحصين كان ممن يشجعون أبا فراس ، على قول الشعر ، ويلمحون نبوغه فيه ، فيقومه له ، ويثقفه ، وكان أبوفراس بعده أستاذاً له، يأخذ عنه ، ويضمر له الحب والإعجاب ، كما نستطيع أن نفهم ذلك من قوله ، وقد أزمع أبو الحصين سفرا :

ياطول شوقى ، إن كان الرحيل غداً لا فرق الله فيما بيننا أبداً
يا من أصافيه فى قرب ، وفى بعد ومن أخالصه إن غاب ، أو شهدا
راع الفراق فؤاداً ، كنت تؤنسه وذر بين الجفون الدمع والسهدا
لا يبعد الله شخصاً ، لا أرى أنسا ولا تطيب لى الدنيا ، إذا بعدا
أضحى وأضحيت ، فى سر وفى علن أعده والدى ، إذ عدنى ولدا
ما زال ينظم فى الشعر مجتهداً فضلا ، وأنظم فيه الشعر مجتهداً
حتى اعترفت ، وعزتنى فضائله وفات سبقا ، وحاز الفضل منفردا

ولا ريب أن أبا فراس متواضع فى ذلك غاية التواضع ، لأن شعره يفوق شعر أبى الحصين ، ويمتاز عليه امتيازاً بينا ، ولكن سن أبى الحصين على ما يظهر كانت تدفع أبا فراس ، إلى هذا الاحترام ، المبنى على الحب . ولقد شارك الشاعر قاضى حلب ، فيما نزل به من خطب ، يوم أسر ابناه : أبو محمد ، وأبو القاسم .

وقد تبودلت رسائل كثيرة ، تفيض بالود بينه وبين ابن عمه : أبى زهير مهلهل ، كما أرسل كثيراً منها إلى أخيه أبى الهيجاء .

والحق أن الرسائل التى تبودلت بين أبى فراس ، وصحبه ، وأهله ، تعد من الأدب الرفيع : صدق عاطفة ، وقوة أداء .

ويبدو ، كما ذكرنا ، أن أبا فراس كان يعامل صحبه بالرفق واللين ، ويسبغ عليهم حبه وعطفه ، وقد رسم فى شعره نماذج لهذا الرفق بالأصدقاء ، فحينا يقول :

لئن ألفيتنى ملـكا مطاعا فإنك واجدى عبد الصديق

وحينا يقول :

ما كنت ، مذ كنت ، إلا طوع خلانى ليست مؤاخذة الإخوان من شأنى
يجنى الخليـل ، فأستحلى جنايتـه حتى أدل على عفوى ، وإحسانى
إذا خليـلى لم تـكثر إسـاءته فأين موقع إحسانى ، وغفرانى
يجنى على ، وأحنو صـالحا ، أبدا لا شىء أحسن من حان على جان

وحينا يقول :

وإذا وجدت على الصديق شكوته سرا إليـه ، وفى المحافل أشـكر

وتلك وغيرها نماذج للأدب الرفيع فى الصداقة .

ولا ريب فى أن أبا فراس ، لقى من بعض أصدقائه مرارة الغدر ، ونكث العهد ، ولا سيما حين وقع أسيراً ، فسمعنا منه كثيراً ، من شكوى الأصدقاء ، والتألم من خيانتهم ، وذلك منثور هنا وهناك فى الروميات .

ديوانه

لم يجمع أبو فراس أشعاره بنفسه ، وإنما كان يدفعها إلى أحد أساتذته المعجبين به : أبي عبد الله الحسين بن خالويه ، وهو من أشهر علماء البلاط الحمداني ، ولعله بهذا كان يريد أن يلقيه بين يدى أستاذ ، يذيعه فى الناس ، ويشرح لهم ما غمض عليهم منه ، ويبين ما فيه من إشارات تاريخية ، يدركها هو بحكم اتصاله بالأمير ، ومن أجل هذا أستبعد صحة تلك الرواية التى تدعى على أبي فراس أنه حظر على أستاذه نشر شعره ، فلو أنه كان يقصد حقاً حظر هذا النشر ، لكفى نفسه مئونة إلقائه إلى أستاذه ، بل مئونة إنشائه ، وكيف ؟ ومن هذا الشعر ما أرسل به إلى أقربائه وأصدقائه ، ومنه ما قصد به تسجيل مفاخره ومفاخر أسرته ، ولا معنى لهذا التسجيل إذا لم يشع بين الناس ، ويجرى على الألسنة ، ويحفظ فى الصدور ، وتحل به الكتب ، وكان أبوفراس يعد الشعر ديوان العرب ، وعنوان الأدب ، لا شيئاً يحط من قدره ، ويرغب فى إخفائه ، بل لقد كانت قدرته البيانية من أسباب فخره ، وإن فى مقدمة ابن خالويه ، ما يدل على أنه كان يلقيه إليه ، ثقة منه بحفظه إياه ، إذ يقول : « ومازال رحمه الله إيجابا لحق الأدب ، ورعاية للصحبة ، وعلماً بأهل المحافظة ، يلقى إلى دون الناس شعره ... فجمعت منه ما ألقاه إلى ، وشرحته بما أرجو أن يقرنه الله عز وجل بالصواب ، والرشاد ، بمنه وطوله ، وقوته وحوله » ، ولا ينبغى أن يفهم من كلمة ابن خالويه ، أنه شرح الديوان ببيان معانى أبياته ، وإنما ذكر أحيانا الظروف التى قيلت فيها القصائد فحسب ، كما شرح الحوادث التاريخية لقصيدة الفخر الرائية ، من غير تعرض لشرح لغوى ، أو تفسير مبهم .

لست أدرى الترتيب الذى اختاره ابن خالويه ، لديوان أبي فراس ، وربما

كان يضم المحدث ، الذى كان يلقى به الشاعر إليه ، إلى القديم الذى عنده ، فيكون بذلك أقرب ما يكون إلى الترتيب التاريخى . أما النسخ الباقية لنا من الديوان فغير متفقه فى ترتيب قصائده ، وقد شوه نساخها شعر أبى فراس ، فحذف بعضهم بعضه ، حتى لم تبق نسخة واحدة تجمع كل شعره ، فضلا عن المسخ الذى أصيب به كثير من ألفاظه ، حتى صار من العسير فهم النص ، فى كثير من الأحيان ، والوصول إلى حقيقة معانى الشاعر . ولم تخل من هذه العيوب النسخ المطبوعة للديوان ببيروت . ومن العجيب أن شارح ديوان أبى فراس وهو عبد اللطيف البهائى ، أحد فقهاء القرن الحادى عشر ، وأحد قضاة بلغراد ، كما حقق ذلك ناشر الديوان الحديث الدكتور سامى الدهان [1] — عثر على إحدى هذه النسخ المشوهة ، فشرحها ، وجره الخطأ إلى شرح خاطئ ، وقد أشار إلى أمثلة كثيرة من هذا الخطأ ناشر الديوان ، ومن ذلك أن أبا فراس قال بيتين ، لما قتل عامل سيف الدولة على قنسرين ، فقصد قاتليه ، مطالباً لهم بدمه ، ثم كف عنهم بتوسط أبى فراس ، وهما :

فما نعمة مكفورة ، قد صنعتها إلى غير ذى شكر ، بمانعتى أخرى
سآتى جميلا ما حييت ، فإننى إذا لم أفد شكرا ، أفدت به أجرا

فوقع للشارح البيت الأول محرفا إلى :

فما نعمة مكفورة ، قد صنعتها إلى غير ذى شكر بما تبتغى أخرى

فلم يحقق النص بل شرح البيت بقوله : « يقول مخاطباً لسيف الدولة : إن النعمة التى صنعتها ، بعفوك عن قاتلى الصباح ، الذى وليته قنسرين ، لكونها مكفورة ، لا تقتضى أن تعاد عليهم مرة أخرى . لكن عادتى أن أفعل الجميل مدة حياتى ، فإن لم أستفد منه الشكر ، استفدت منه الأجر ». وهو بذلك الشرح لا يلحظ أن الشاعر بهذا ، يجعل الأمير فى منزلة أقل من منزلته ، إذ يخبره بأن

(١) ديوان أبى فراس ج ٢ ص ت ٢٥ .

نعمته ما دامت مكفورة ، لا يجدر به أن يسدى للمنكرين نعمة أخرى ، بينما أبو فراس من عادته فعل الجميل دائماً ، شكر ، أم كفر .

كما شرح قول أبي فراس :

وفارق عمرو بن الزبير خليله وخلى أميرَ المؤمنين عقيلُ

فقال : « يعنى هذا شأن الدنيا ، وشأن أهليها من الغدر ، وعدم البقاء على الصحبة ، كما فى قصة عمرو بن الزبير ، مع خليله ، وتخلية أمير المؤمنين سيف الدولة ، قبيلة عقيل ، الذين قادهم ندى بن جعفر » . والواقع أن الشاعر يشير إلى عداوة عمرو بن الزبير ، لأخيه عبد الله ، وقيامه ضده ، وتعذيبه أصحاب أخيه ، ويريد بأمير المؤمنين ، على بن أبى طالب ، وقد فارقه أخوه عقيل ، ومضى إلى معاوية ، كما هو مشهور .

ومن شرح هذا الفقيه ، أخذ نخلة قلفاط ، فى حل بعض أبيات الديوان ، عند ما طبع ببيروت سنة ١٩٠٠ ، وكثيراً ما يوجز ويختصر .

لم يعثر البهائى على ديوان أبى فراس كاملا ، بل ينقصه الكثير من قصائده ، ولم يقف فى شرحه ، عند الإشارات التاريخية ، التى فى الديوان يوضح المراد بها ، ولم ينقل ما أورده ابن خالويه فى توضيحها ، بل كان التفسير اللغوى وجهته ، فيذكر النص ، ويشرح ما فيه من ألفاظ لغوية ، موردا بعض ما لكلمه ، من مشتقات وجموع ، ومبينا ما فى الكلام من أنواع البيان والبديع ، ومتبعا ذلك بذكر المعنى الإجمالى للنص ، وكل ذلك فى إيجاز ، دفعه إليه إسراعه فى هذا الشرح ، فقد أتمه فى عشرين يوما ، وكان الفراغ من إتمامه ليلة السبت ، لثلاث خلون من جمادى الآخرة ، سنة خمس وسبعين وألف ، وكثيراً ما كان الشارح يعفى نفسه من عناء الشرح ، فيقول عن البيت من الشعر : ظاهر غنى عن الشرح . ور بما كان خفياً غامضاً .

كان ديوان أبى فراس على ما وصفنا من النقص والتشويه ، حتى هيىء له

أحد العلماء الناشرين ، وهو الدكتور سامى الدهان ، فأخرجه متبعاً أمثل طرق الإخراج ، ووقف عليه حقبة طويلة من السنين ، حتى استطاع أن يخرج أصح ما يمكن أن يكون إلى اليوم ، لديوان أبى فراس ، وإن من يعانى مثل ما عاناه الناشر ، ليقدر ما بذله من جهد مضن ، فى التنقيب والتحقيق والاختيار ، ولا يسعنا إلا أن نشكر له جهده الموفق ، راجين منه المثابرة على إخراج ما يستطيع إخراجه من كتب المكتبة العربية ، فى هذه الصورة الممتازة .

وبرغم هذا الجهد المضنى ، الذى بذله الناشر الكريم ، لم يدع أنه وصل إلى المثل الأعلى الذى يبغيه ، وطلب من النقاد أن يوافوه بآرائهم فى عمله المثمر ، إذ قال « غير أنى لم أظفر بمن يقرؤه من الدفة إلى الدفة ، يسجل نقده ، وأسجل يده ، .. وأملى أن يحظى بالناقد الحكيم ، والقارىء الكريم ، فيرد إلى معايبه ، ويبصرنى بزلله » .

وعلى هذا الأساس ، أبدى بعض ملحوظات ، عنت لى بعد قراءة الديوان كله ، قراءة دارسة ناقدة ، من غير أن تقلل هذه الملحوظات اليسيرة ، من قيمة هذا الجهد المشكور ، والعمل الصالح .

وأول ما ألحظه على الديوان ترتيبه ، فقد اتبع نهجاً صناعياً لا فنياً فى هذا الترتيب ، إذ قسمه على نظام حروف القوافى ، وإنى أوثر على هذا نظامين آخرين للترتيب : هما الترتيب التاريخى ، والترتيب الموضوعى ، ذلك أن الترتيب على حسب القوافى ليس له قيمة ما ، وليس له من فائدة سوى سهولة العثور على القصيدة فى الديوان ، ويغنى عن ذلك فهرس يوضع فى آخر الكتاب ؛ لتسهيل المراجعة ، أما الترتيب التاريخى ، فيساعد على تتبع التدرج الفنى للشاعر ، ويعين على معرفة أثر الزمن ، فى نفس الشاعر ونظرته إلى الحياة ، وربما كان الترتيب الذى سار عليه ابن خالويه ، أقرب إلى الترتيب التاريخى ، كما ذكرنا ، فإذا عزّ علينا الترتيب التاريخى ، فالأفضل أن نرتب الديوان على حسب موضوعاته ،

فتجمع قصائد كل باب متجاورة ، فذلك خليق بأن يبرز لنا خصائص الشاعر ، فى كل فن من فنونه ، فى سهولة و يسر . فإذا جمعنا بين الترتيب الموضوعى والتاريخى معاً ، فذلك هو المثل الأعلى للجمع والترتيب .

وكنت أوثر أن لو أضاف الناشر إلى جهده الضخم ، شرح غريب الديوان فى ذيل الصفحات ؛ حتى يكون بذلك قد خلى بين القارىء والشعر ، لا يحول بينهما تحريف فى عبارة ، ولا غرابة فى لفظ ، ولم يكن أبو فراس مغرما بالغريب أو مستكثراً منه ، فكان من السهل على الناشر شرح هذا القليل ، حتى يصبح كتابه مستغنياً بنفسه عما سواه .

وقد تحرى الناشر أقرب الروايات إلى الصحة ، من بين الروايات المختلفة ، ولكنى أرى أنه قد اختار فى أحيان قليلة رواية أراها مرجوحة ، كما آثر أن يروى هذا البيت :

وهل لقضاء الله فى الخلق غالب وهل لقضاء الله فى الخلق هارب

(ص ٣٢) باللام ، وإنى أوثر رواية الشطر الثانى بمن بدلها ، فيكون : « وهل من قضاء الله فى الخلق هارب » ؛ إذ يقال : هرب من كذا .

وآثر أن يروى البيت فى خطاب سيف الدولة :

دعوناك ، والهجران دونك دعوة أتاك بها يقظان فكرك ، لا البرد

وأوثر رواية العاملى : البحران بدل الهجران ، التى لا معنى لها هنا ، ولعله يقصد بالبحرين نهرين ، يفصلان بينه و بينهم . وروى البيت :

يا طلعة الشمس لما صادفت حللا من السحاب على أرض من الزهر

وأوثر خللا ، أى منفرجا بين السحب ، لأن طلعة الشمس إذا لبست حلل السحب لا ترى ، ولا تفرح بها أرض من الزهر . وروى البيت :

أخو الغمرات فى جد وهزل أخو النفقات من سعة وضيق

وأفضل : رواية فى سعة وضيق ، أو فى وجد وضيق . وروى البيت :

ولكن دهرا دافعتنى خطوبة كما دفع الدين الغريم المماطل

وأفضل دافع الدين الغريم المماطل. وروى البيت :

خليلى شدالى على ناقتيكما إذا ما بدا شيب من العجز ناصل

ولا معنى للعجز هنا ، وأختار رواية الفجر . وروى البيت :

وإن مقيما ، منهج العجز ، خائب وإن مريغا ، خائب الجهد ، نائل

وأفضّل على ذلك رواية : وإن مقيما منجح العجز خائب ؛ فإن أبا فراس يوازن بين رجلين : أحدهما مقيم لا يطلب ، عاجز عن الجهاد ، غير أنه قد نجح ؛ وثانيهما طالب مجد ، ولكن جهده قد خاب ، فأبو فراس لا يعد نجاح الأول نجاحا ، ولا فشل الثانى خيبة وإخفاقا . ورجح رواية البيت :

لقد ظننتك بين الجحفلين ترى أن السلامة من وقع القنا تصم

والأفضل رواية : لقد رأيتك . وآثر رواية البيت :

ومن لقى الذى لاقيت هانت عليه موارد الموت الزؤام

وأوثر الرواية الأخرى : ومن أبقى الذى أبقيت هانت ... لأنه فسر ما أبقاه فى البيت الثانى ، إذ يقول :

ثناء طيب ، لا خلف فيه وآثار كآثار الغمام

وبدون ذلك ، يبدو البيت الثانى ، منقطعاً عن صاحبه . وروى البيت :

فيغلظ قلبى ساعة ، ثم ينثنى وأقسو عليه ، تارة ، ويلين

والأفضل عندى رواية : « وألين » حتى يكون المتحدث عنه واحداً فى الشطر الثانى ، كما هو واحد فى الشطر الأول .

هذا ، ويخيل إلى أن أبياتاً ثلاثة ، قد تسللت إلى القصيدة رقم ٣٣٢ ص٤٠٦ ، من غير أن تكون هذه الأبيات فيها ، أو أن موضعها فى القصيدة ، ليس هو الموضع الصحيح ، وذلك حيث يقول :

ما لى جزعت من الخطوب ، وإنما أخذ المهيمن بعض ما أعطانى

ولقد سررت ، كما غممت عشائرى زمنا ، وهنـأنى الذى عزانى
وأسرت فى مجرى خيولى ، غازيا وحبست ، فيما أشعلت نيرانى

فأنت تراه هنا يتحدث عن حاضره المؤلم ، متسلياً بماضيه ، ولـكنه ينتقل من ذلك إلى مدح سيف الدولة ، فيقول :

يرمى بنـا شطر البلاد ، مشيع صدق الـكريهة فائض الإحسان
بلد لعمرك ، لم أزل زواره مع سيد ، قرم ، أغر ، هجان
إنا لنلقى الخطب فيك ، وغيره بموفق ، عند الخطوب ، معان

ثم يعود مرة أخرى إلى الحديث عن حاله اليوم والأمس ، فيقول :

أصبحت ممتنع الحراك ، وربما أصبحت ممتنعـاً على الأقران

مما أرجح معه أن هذه الأبيات ، قد دست بين الغرض الواحد دسا ، فضلا عن حديثه عن بلد ، غـير مذكور فى القصيدة ، وعن غموض المعنى ، وضعف الأسلوب فى قوله : إنا لنلقى فيك الخطب وغيره .

وفى الديوان عنوان خاطئ هو: وقال فى ابنته زوجة أبى العشائر (ص٣٧٥) ، فأبو العشائر لم يتزوج ابنة أبى فراس ، ولـكن أخته ، ولعل الصواب أن هذه القطعة ، قالها أبو فراس فى زوجته هو ، ابنة أبى العشائر ، والشعر نفسه يدل على ذلك ، إذ يقول :

وأديبة ، اخـترتُها ، عربية تعزى إلى الجد الـكريم ، وتنتمى
لو لم يـكن لى فيك إلا أننى بك قد غنيت عن ارتكاب المحرم

وهناك — وإن كان ذلك نادرا — بعض جمل غير مفهومة كقوله :

حملت على ورود الموت نفسى وقلت لعصبتى : موتوا كراما
ولم أبذل ، لخوفهم ، مجنـا ولم ألبس ، حذار الموت ، لاما

فلا معنى لـكلمة ، أبذل هنا كما أشعر بقلق فى كلمة ، صباح ، من رواية هذا البيت :

يئول به الصباح ، إلى صباح ويسلمه الظلام ، إلى ظلام

فالشاعر فى الشطر الثانى ، يريد أن يقول : إن ظلام الليل ، يسلمه إلى ظلام ، فى نظرته إلى الحياة ، وإلى متاعب قلبية ، يظلم بها عيشه ، ومن هنا لا أجد لكلمة صباح موضعاً .

وعنى الناشر بأن يستدرك ما أخطأت فيه المطبعة من الشكل ، ولكن لم يزل هناك بعض ، لم يشر إليه ، فمن ذلك زمت أبا عره (ص ١٨١) بفتح الزاى ، والصواب ضمها ، وينسون بضم السين (ص ٢٧١) والصواب فتحها ، وتعال (ص ١٨٤) بضم التاء بدل فتحها ، وولوا (ص ٢٨٥) بضم اللام بدل فتحها ، وتَوضَع مكان تُوضِع (ص ٢٧٩) ، ولكن الكلامِ بدل ولكن الكلامَ (ص ٣٧١) .

هذا ، وكنت أوثر للناشر ، أن ينقل إلى العربية ، آراء المستشرقين فى الشاعر ، كما نقل إلى الفرنسية ، موجز ما كتبه العرب عنه ، حتى يقف من لا علم عنده بالفرنسية ، على آراء المستشرقين فى الشاعر العربى .

وبعد فهذه ملحوظات ، لا تقلل شيئاً من قيمة جهد الناشر الكريم ، الذى أحيا بجده ديوان أبى فراس . وقد ذكرناها ، أمانة للعلم ، وسعياً للوصول إلى الكمال .

بينـــــه وبين المتنبي

(كان أبو فراس ، فى السابعة عشرة من عمره ، عندما اتصل المتنبي بسيف الدولة ، سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة هجرية ، بينما كان المتنبي يقطع عامه الرابع والثلاثين ، وظل الشاعران زهاء تسع سنوات ، يجمعهما بلاط الأمير ، ولـكنك لا تجد فى ديوان أحد الشاعرين ، ذكر صاحبه ، مما يوحى بأن الصلة بينهما ، لم تـكن صلة حب وود ، وإنما كانت صلة خصومة ونفار . ولعلنا لا نحتاج إلى عناء ، فى تلمس الأسباب التى باعدت بين الشاعرين ، فأبو فراس أمير من بيت الملك ، يعتز بنسبه ، وحسبه ، وصلته بسيف الدولة ، وموهبته الشعرية ، يملأ نفسه الشعور بهذا كله ، ولا سيما فى مثل هذه السن التى يتجسم فيها الشعور بالذات ، والاعتزاز بالمواهب ، فلم يـكن يرضيه ما يشاهده فى المتنبي من عجرفة وكبرياء ، كان يشكو بعض مرارتها سيف الدولة نفسه ، وكان من آثار غطرسة المتنبي ، أن أغفل أبا فراس ، فلم يمدحه ، ولعل لصغر سن الأمير دخلا فى هذا الإغفال ، فنشأ هذا الجفاء ، الذى نما بمرور الأيام .

ويرى المستشرق بلاشير ، فى كتابه عن المتنبي (ص ١٤٢) أن الـكراهية بين أبى فراس والمتنبي ، تعود إلى نفور طبيعى ، هذا النفور الذى يكون بين أمير عظيم ، وعامى دنىء النسب ، بين رجل ذى قلب ، وآخر يغالى ويعبث ، بين شاعر حساس ، ورجل ذى منطق وبرهان .)

ولقد تجمع حول أبى فراس ، طائفة من شانئى المتنبي وحاسديه ، كأبى العشائر ، زوج أخت أبى فراس ، الذى لم يغفر للمتنبي إغفاله إياه ، بعد أن كان سبب تعرفه بسيف الدولة ، وبعض رجال البلاط ، من أصدقاء أبي فراس كالقاضى أبى الحصين ، والأميرين : أبى محمد ، وأبى حامد ابنى ورقاء ، والعالم

النحوى ابن خالويه ، الذى لم ينس للمتنبى احتقاره لغير العرب ، ولا مهاجمته إياه فى بعض ما كان يمتز به من قواعده ونحوه ، وكان يخشى أن يصاب فى رزقه ، الذى كان يدره عليه ، قيامه بتعليم الأمراء .

وكان أبو فراس فى أول الأمر يحتاط فى خصومته ، ويقف عند حد المهاجمات اليسيرة ، فكان يسخر من المتنبى ، أنه لا يجيد ركوب الخيل ، ولا استعمال السلاح [1] . وكثيراً ما كان يذكره ، هو ومن معه ، بحادثة بادية السماوة ، ويسألونه عن سبب تقليبه بالمتنبى ، ويبحثون فى ديوانه عن شعر يحوى قضايا فلسفية فيها بدع ، وما كان يعجزهم العثور على هذه الأبيات .

ويظهر أن أبا فراس وجماعته لم تهدد الشاعر فى رزقه ، تهديداً أثر فى نفسه ، وأثاره إلا بعد نحو ثلاث سنوات من مقدمه ، فقد رأينا أبا الطيب فى القصيدة التى أنشأها فى رمضان ، سنة أربعين وثلاثمائة ، وقد أراد سيف الدولة قصد خرشنة ، فعاقه الثلج عن ذلك — يقول لأول مرة مشيراً إلى خصومه :

خليلى ، إنى لا أرى غير شاعر ... فلم منهم الدعوى ومنى القصائد ؟!
أحبك يا شمس الزمان ، وبدره ... وإن لا منى فيك السها ، والفراقد
وذاك ؛ لأن الفضل عندك باهر ... وليس لأن العيش عندك بارد

وربما كان الشاعر يفكر فى نفسه ، أكثر من تفكيره فى سيف الدولة وهو ينشد قصيدته التى عزاه فيها عن غلامه يماك ، فى رمضان أيضاً ، سنة أربعين وثلاثمائة :

فدتك نفوس الحاسدين ، فإنها ... معذبة ، فى حضرة ، ومغيب
وفى تعب من يحسد الشمس نورها ... ويجهد أن يأتى لها بضريب

ولعل المتنبى حاول فى أول الأمر ، ألا يثير ضده ، خصومة أبى فراس ، لعلمه بشدة قربه من قلب الأمير سيف الدولة ، فأبو فراس فضلا عن أنه

(١) خزانة الأدب جـ ١ ص٣٩٩ ، والصبح المنبى جـ ١ ص ٥٤ .

ابن عمه ، كانت أخته زوج سيف الدولة ووالدة ابنيه : أبي المكارم ، وأبي المعالى ، « وكان سيف الدولة يعجب جداً بمحاسن أبي فراس ، ويميزه بالإكرام عن سائر قومه ، ويصطنعه لنفسه [١] » ، ولا يأمن المتنبي نتيجة هذا العداء . ولعله كان يتملق أبا فراس ، فيشهد له بالبراعة الشعرية ، يقول الثعالبي : « وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز ، ويتحامى جانبه ، فلا ينبرى لمباراته ، ولا يجترىء على مجاراته ، وإنما لم يمدحه ، ومدح من دونه من آل حمدان ؛ تهيباً له وإجلالا ، لا إغفالا وإخلالا [٢] » .

أما أن المتنبي كان يشهد له بالتقدم والتبريز ، فقد يكون ذلك على سبيل كف الأذى عن نفسه ، وربما كان المتنبي فى سريرته ، لا يعترف له بتقدم ولا تبريز ، كما شاهدنا ذلك فى أبياته السابقة ، التى لا يجد فيها شاعراً إلا نفسه ، وأما أنه كان يتحامى جانبه ، فذلك صحيح لما ذكرناه ، وأما أنه لم يمدحه ، فلهذا النفور الذى كان بين الشاعرين ، ولصغر سن أبى فراس ، وعجرفة المتنبي الذى لم يمدح بعد أن اتصل برأس الحمدانيين — أميراً غيره ؛ ذهاباً بنفسه — كما يقال — عن مدح غير الملوك . أما ما ادعاه الثعالبي ، من أن سبب ذلك كان الهيبة والإجلال ، فغير معقول ، لأن الهيبة والإجلال ، لم تحولا بينه وبين مدح سيف الدولة .

كان المتنبي يرجو ألا يثير خصومة أبي فراس ، ولكن هذا الأمير الشاب ، لم يكف عن خصومته ، التى بدأت تجعل المتنبي يتبرم بالحياة إلى جانب سيف الدولة . ويظهر هذا التبرم فى شعره ، وخصومه يتربصون الدوائر به ، فما هو إلا أن أبطأ الشاعر فى إنشاد المديح لسيف الدولة ، وكان هذا شديد الرغبة فى سماع مدائحه ، كما يدل على ذلك تاريخه مع شاعره [٣] — حتى انتهز هذه الفرصة

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٧ .
(٢) المرجع السابق نفسه .
(٣) راجع كتاب المتنبى بعد ألف عام للدكتور عبد الوهاب عزام بك ص ١٢٠ .

أبو فراس ، فقال لا بن عمه : « إن هذا المتشدق كثير الإدلال عليك ، وأنت تعطيه كل سنة ، ثلاثة آلاف دينار ، على ثلاث قصائد ، ويمكن أن تفرق مائتى دينار ، على عشرين شاعراً ، يأتون بما هو خير من شعره » ، وكان لهذا الحديث ، أثره العميق فى نفس سيف الدولة ، فأعرض عن الشاعر يوماً فى محضر من الناس ، فمضى المتنبى يريد أن يستدرك أمره ، فأرسل إلى الأمير قصيدة ، يقول فيها :

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويل السلام اختصارا

ومنها : كفرت مكارمك الباهرات ، إن كان ذلك منى اختيـــارا

ولـكن حمى الشعر إلا القليل ، هم ، حمى النوم ، إلا غرارا

ولـكن ذلك ، لم يعد الأمير إلى سابق رضاه ، فأنشأ الشاعر قصيدة ، يحدثه فيها عن آلامه ، ويتذره بالفراق ، ويهاجم خصومه ، ولقد حفظ تاريخ الأدب لهذه القصيدة قصة ، حكاها ابن الدهان المتوفى سنة ٥٦٩هـ ، وهى وإن كان الشك يحيط بتفاصيلها ، تعطى ظلا ، لما دار فى مجلس إنشادها ؛ ففى آخر رجب أو أول شعبان سنة ٣٤١هـ ، نجد المتنبى فى مجلس سيف الدولة ، وقد أحاط بالأمير ابن عمه ، ومنافسو الشاعر ، وفى هذا الجو ، يبدأ المتنبى فى إنشاد قصيدته :

واحر قلباه ، ممن قلبه شبم ومن بجسمى وحالى عنده سقم

مالى أكتم حباً قد برى جسدى وتدعى حب سيف الدولة الأمم

فيتألم أبو فراس لهذه الإشارة ، ولـكنه يكظم غيظه ، بينما الشاعر يستمر فى إنشاده :

إن كان يجمعنا حب لغرته فليت أنا بقدر الحب نقتسم

قد زرته ، وسيوف الهند مغمدة وقد نظرت إليه ، والسيوف دم

يشير بذلك إلى الهزيمة ، التى منى بها جيش سيف الدولة أمام خرشنة ، وكان بعض هؤلاء الذين انهزموا ، حاضرا ذلك المجلس ، فبدا عليهم الغضب

عندئذ ، حتى إذا وصل إلى قوله :

يا أعدل النـــاس إلا فى معاملتى فيك الخصام ، وأنت الخصم ، والحـكم

لم يستطع أبو فراس أن يكبح جماح نفسه ، فقال له : مسخت قول دعبل ، وادعيته ، وهو :

ولست أرجو انتصافا منك ، ما زرفت عينى دموعا ، وأنت الخصم والحـكم

وهنا لم يرد عليه المتنبى ، بل زاده غيظا ، إذ قال :

أعيذها نظرات ، منك ، صـادقة أن تحسب الشحم ، فيمن شحمه ورم

قيل : فعلم أبو فراس أنه يعنيه ، فقال : « ومن أنت يا دعى كندة ، حتى تأخذ أعراض أهل الأمير فى مجلسه ؟ ! » ولـكن المتنبى لا يجيبه . ويستمر ، حتى يصل إلى قوله :

سيعلم الجمـع ، ممن ضم مجلسنا بأننى خـير من تسعى به قدم

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى وأسمعت كلماتى من به صمم

فقال له أبو فراس : سرقت هذا من عمرو بن عروة بن الورد ، إذ قال :

أوضحت من طرق الآداب ما اشتكلت دهرا ، وأظهرت إعرابا ، وإبداعا

حتى فتحت بإعجاز ، خصصت به للعمى ، والصم ، أبصاراً ، وأسماعا

ولما وصل المتنبى إلى قوله :

والخيل ، والليل ، والبيداء ، تعرفنى والحرب ، والضرب ، والقرطاس ، والقلم

قال له أبو فراس : « وما أبقيت للأمير ، إذا وصفت نفسك بالشجاعة ، والفصاحة ، والرياسة ، والسماحة ؟ ! تمدح نفسك بما سرقته من كلام غيرك ، وتأخذ جوائز الأمير ؟ ! أما سرقت هذا من الهيثم بن الأسود النخعى ؟

أعاذلتى ، كم مهمه قد قطعته أليف وحوش ، ساكنا غير هائب

أنا ابن الفلا والطعن والضرب والسرى وجرد المذاكى ، والقنا ، والقواضب

وهكذا استمر أبو فراس يتهمه بالسرقة ، والمتنبى منصرف عنه لا يجيبه ،

حتى انتهى الشاعر من إنشاده ، ولم ينجح فى استرضاء الأمير ، غالبا ؛ فقد كانت القصيدة فى جملتها ، عنيفة منذرة ، أكثر منها لينة ، مسترضية .

وظل المتنبى بعد هذه المعركة أربع سنين ، وهو فى نضال مع خصومه ، وقد حفظ لنا شعره ، صورة من هذا النضال ، حتى انتهى الأمر بانتصارهم عليه ، على يد ابن خالويه ، ففى مناقشة بينهما ، فى مجلس الأمير ، أخرج ابن خالويه مفتاحاً من كمه ، شج به الشاعر ، فأدماه ، ولم يقل الأمير شيئا ، وخرج المتنبى كسير النفس ، حزينا ، ورحل عن بلاط سيف الدولة .

وكان أبو فراس من بين الأسباب التى حالت بين المتنبى وعودته إلى حلب، بعد مغادرته مصر، فقد كان يخشى أن يموت سيف الدولة ، و يأخذ السلطة ابن عمه أبو فراس ، فلا يطيب له المقام فى حلب .

و إذا كان المتنبى قد أشار — إذا صح ماروى — إلى أبى فراس فى شعره ، وهاجمه ، فإن أبا فراس لم يشر إشارة ما ، إلى المتنبى فى شعره ، ولعل سبب ذلك يعود إلى أن المتنبى كان مضطراً إلى مهاجمة خصومه ، ليدافع عن عيشه ومصدر رزقه ، الذى كان مهدداً بهؤلاء الخصوم ، أما موقف أبى فراس منه ، فموقف الكائد له ، المغيظ منه ، ولعله يراه فى نظره أهون من أن يشغل شعر أمير من بيت الملك .

* * *

كان موقف الشاعرين من سيف الدولة موقف الحب والإجلال ، وقد أجادا فى الإفصاح عما يحملانه لهذا الأمير الكبير .

أما موقفهما من معارك سيف الدولة ووقائعه ، فمختلف ، ذلك أن المتنبى كان الشاعر الرسمى للأمير ، فكان يطلب منه أن يشيد بذكر هذه الوقائع ، فى قصائد طويلة مليئة بالتصوير والتهويل . أما أبو فراس فلم يكن يطلب منه ذلك ، فلم يكن أبو فراس يسجل فى قصائد خاصة ، معارك سيف الدولة ، بأن ينشىء

القصيدة ، عقب المعركة الكبيرة يتحدث عنها ، كما كان يفعل المتنبي ، بل يظهر لى أن هذه المعارك لم تظفر بشعر من أبى فراس قبل سنة ٣٤٣ هـ ، عند ما أنشأ قصيدته الرائية المطولة ، التى تحدث فيها عن مفاخر أسرته ، فخص سيف الدولة بشطر كبير منهـا ، سجل فيه معارك ابن عمه فى العرب والروم ، غير ملتزم فى الحوادث ترتيبها كما وقعت . وفى هذا الجزء من القصيدة تحدث أبو فراس عن حوادث لم يتحدث عنها المتنبى ، وعن أخرى أنشد فيها هذا قصائد مطولة .

فما تحدثا عنه معاً ، تلك الغزوة ، التى خرج فيها جماعة من القرامطة ، فى بادية السماوة ، فأغاروا على حمص ، وأخذوا عامل سيف الدولة عليها ، وهو ابن عمه أبو وائل : تغلب بن داود ، فمضى إليهم سيف الدولة ، وأوقع بهم ، واستنقذ منهم ابن عمه ، وكان ذلك عام سبعة وثلاثين وثلاثمائة ، وعمر أبى فراس زهاء سبعة عشر عاما ، فلم ينشىء يومئذ أبو فراس شعراً فى ذلك ، أما المتنبى فقد أنشأ قصيدة طويلة لامية [1] بدأها بقوله :

إلام طماعـــــية العـاذل ولا رأى فى الحب للعاقل ؟ !

وقد تصرف فيها فى فنون القول : فبدأها بغزل رقيق ، ثم انتقل إلى الحديث عن أسر أبي وائل ؛ وكيف مضى سيف الدولة إليه ، ينقذه فى جيش كفيل بالنصر ، ويمضى الشاعر فى تصوير لقاء الجيش ، مستهزئا بالقرمطى حيناً ، ومشيداً بشجاعة سيف الدولة حيناً آخر ، وخاتماً قصيدته بحديث عما فى الحياة من خيانة وغدر .

أما أبوفراس ، فإنه لم يدع لهذا الحادث من قصيدته الطويلة سوى بيتين ، هما :

وأنقذ من مس الحديد وثقله أبا وائل ، والدهر أجدع ، صاغر
وآب ، ورأس القرمطى أمامه لهجسد ، من أكعب الرمح ، ضامر

فهو مع إيجازه ، لم ينس تصوير هذا المنظر ، الذى ربما كان قد رآه ، عند عودة سيف الدولة إلى حلب ، يقدمه رأس القرمطى على رمح .

---

(١) راجع تحليل القصيدة فى صفحة (٤٠٣) من كتاب مع المتنبى للدكتور طه حسين باشا .

وفى سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة ، مضى سيف الدولة غازيا فى بلاد الروم ، وكان يصحبه فى تلك الغزاة الشاعران ، ونجح سيف الدولة ، وانتصر انتصارا مبينا فى أول الأمر ، فإنه اقتحم الحدود ، وأوغل فى بلاد الروم ، وظفر بغنائم كثيرة ، ولكن هذا النصر استحال إلى هزيمة ، فإن العدو قد أخذ الطرق على الغزاة وهم قافلون ، ولم ينج سيف الدولة إلا بعد جهد جهيد . وفى السنة التالية أراد أن يثأر للمسلمين ، مما أصابهم فى عامهم الفارط ، فتهيأ للزحف ، ولكن المسلمين هابوا جيش العدو ، وقد بلغهم ضخامته ، وكثرة عدده ، غير أن سيف الدولة مضى بجيشه ، حتى اكتسح العدو ، وكان يريد أن يصل إلى خرشنة ، فعاقه عن ذلك تساقط الثلج ، فلم يستطع سيف الدولة أن يتقدم ، وعاد بجيشه ، مظفراً لم يضايقه الروم ، ولم يأخذوا عليه طريقه .

صور المتنبى هذه الحوادث . تصويراً قويا ،فى قصائد عدة رائعة ، فعند ما عرض سيف الدولة الجيش قبل هجومه سنة ٣٣٩هـ ، أنشأ قصيدة جيمية[1] أولها:

لهذا اليوم بعد غد ، أريج ونار فى العدو ، لها أجيج

وفيها يقول له :

فلا زالت عداتك حيث كانت فرائس ، أيها الأسد المهيج

. . .

أبا لغمرات ، توعدنا النصارى ونحن نجومها ، وهى البروج

وفينا السيف ، حملته صدوق إذا لاقى ، وغارته لجوج

حتى إذا عاد من تلك الغزاة ، غير بالغ من التوفيق ما كان يبغيه ، أنشد قصيدة من أقوى قصائده ، بدأها بقوله :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع إن قاتلوا جبنوا ، أوحدثوا شجعوا

---

(١) راجع تحليل هذه القصيدة وما بعدها بص ٤٣٦ وما يليها من كتاب مع المتنبى للدكتور طه حسين باشا .

ووصف فيها ما كان فى أول الحرب ، من نصر مبين ، ثم هزيمة منكرة ، تصويراً بارعاً صادقاً ، فإذا كان العام القادم فها هو ذا المتنبى ، ينشد قصيدته ، يحث فيها رجال الجيش ، على الإقدام غير هائبين عدة العدو ، وعدده ، ويقول :

وقد علم الروم الشقيون أننا ... إذا ما تركنا أرضهم خلفنا عدنا
وأنا إذا ما الموت صرح فى الوغى ... لبسنا إلى حاجاتنا الضرب والطعنا

فلما انتصر الجيش ، سجل انتصاره ، فى قصيدة دالية ، يقول فيها :

وأشقى بلاد الله ، ما الروم أهلها ... بهذا ، وما فيها لمجدك جاحد
شننت بها الغارات ، حتى تركتها ... وجفن الذى خلف الفرنجة ساهد
مخضبة ، والقوم صرعى ، كأنها ... وإن لم يكونوا ساجدين ، مساجد

وهكذا ، كان شعر المتنبى ، الصوت المدوى فى هذه الأحداث ، واللسان المعبر عنها ، والمصور لها ، بينما لم نسمع لأبى فراس صوتاً فيها ، حتى إذا أنشأ رائيته اكتفى فى وصف هذه الوقائع ببضعة أبيات ، هى :

وأوردها بطن اللقان ، وظهره ... يطأن به القتلى ، خفاف حوادر
أخذن بأنفاس الدمستق ، وابنه ... وعبرن بالتيجان من هو عابر
وجبن بلاد الروم ، ستين ليلة ... تغاور ملك الروم فيمن تغاور
تخر لنا تلك المعاقل سجدا ... وترمى لنا بالأهل ، تلك المطامر

وصمت أبو فراس كذلك سنة اثنتين وأربعين وثلاثمائة ، فلم ينظم شعرا فى تلك الغزوة الناجحة ، التى شنها سيف الدولة فى بلاد الروم ، وخرج منها هازما الدمستق ، آسرا ابنه قسطنطين ، مع أن أبا فراس كان يصحب الأمير فى تلك الغزوة ، وسجلها بعدئذ فى رائيته فى شعر قوى حقا ، إذ يقول :

ولما وردنا « الدرب » والروم فوقه ... وقدر قسطنطين أن ليس صادر
ضربنا بها عرض « الفرات » كأنما ... تسير بنا تحت السروج جزائر

وأبن بقسطنطين ، وهو مكبل تحف بطاريق به ، وزراور
وولى على الرسم الدستق هاربا وفى وجهه عذر ، من السيف ، عاذر
فدى نفسه ، بابن عليه ، كنفسه وللشدة الصماء ، تقنى الذخائر
وقد يقطع العضو النفيس لغيره وتدفع بالأمر الكبير ، الكبائر

ولكن هذا الشعر القوى ، لا يبلغ من الروعة تلك القصيدة التى أنشأها المتنبى فى تلك الغزاة ، والتى عدها الدكتور طه حسين [1] أروع ما قاله لسيف الدولة من الشعر ، ومطلع القصيدة :

ليالى بعد الظاعنين شكول طوال ، وليل العاشقين طويل

ولم تظفر معركة الحدث التى نشبت سنة ٣٤٣ هـ ، ثم جددت سنة ٣٤٤ هـ من أبى فراس ، بأكثر من أربعة أبيات فى رائيته ، بينما أنشأ فيها المتنبى قصيدتين ، لا يزال مطلع أولاهما ، يجرى على كل لسان ، إذ يقول :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

وليست الأبيات الأربعة بشىء بجانب قصيدة المتنبى .

ووصف الشاعران كذلك ، وصول رسول ملك الروم ، يطلب الهدنة من سيف الدولة ، وكان وصول الرسول يملأ المتنبى زهواً ، ويثير فيه أروع الشعر وأقواه ، وقد وصف فى ثلاث قصائد ، ثلاث مرات قدم فيها الرسول ، يطلب الهدنة ، وكانت القصائد فى قوتها ، متناسبة مع الدافع القوى على إنشائها ؛ ففى سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة ، نظم قصيدة يقول فيها ، ممتلئاً بهذا الموقف فخاراً :

لقد جدت ، حتى جدت فى كل ملة وحتى أتاك الحمد ، من كل منطق
رأى ملك الروم ارتياحك للندى فقام مقام المجتدى ، المتملق
وخلى الرماح السمهرية ، صاغراً لأدرب منه بالطعان وأحذق

---

(١) مع المتنبى ص ٤٤٣ .

وكاتب من أرض ، بعيـد مرامها قريب على خيل حواليك ، سبق

وفى سنة ثلاث وأربعين ، أنشأ قصيدتين أيضاً ، فى مقدم رسول ملك الروم ، قال فى إحداهما :

إذا عاينتك الرسل ، هانت نفوسها عليها ، وما جاءت به ، والمراسل
رجا الروم من ترجى النوافل كلها لديه ، ولا ترجى لديه الطوائل
فإن كان خوف القتل والأسر ساقهم فقد فعلوا ما القتل والأسر فاعل

وفى مفتتح سنة أربع وأربعين وثلاثمـــائة ، ورد فرسان الثغور ، ومعهم رسول ملك الروم ، يطلب الهدنة أيضاً ، فأنشد المتنبى بحضرتهم قصيدة طويلة ، من قصائده القوية ، وفيها يقول :

تغر حلاوات النفوس قلوبهـــا فتختار بعض العيش ، وهو حمام
وشر الحامين الزؤامين ، عيشة يذل الذى يختـــارها ، ويضام
فلو كان صلحاً لم يكن بشفاعـة ولـكنـــه ذل لهم ؛ وغرام
ومنٌّ لفرسـان الثغور عليهم بتبليغهم مالا يـكاد يرام

أما أبو فراس فلم يحدثنا سوى مرة واحدة عن مقدم الرسول ، وقد أنشأ فى ذلك مقطوعة ، وصف فيها الجند الذين أمر سيف الدولة أن يركبوا بسلاحهم ، ومعهم راياتهم ، فامتلأ بهم جبل « جوشن » وما حوله ، فقال :

علونا « جوشـنا » بأشد منه وأثبت ، عنـد مشتجر الرماح
بجيش ، جاش بالفرسـان ، حتى ظننت البر بحرا ، من سـلاح

ومنها يمدح سيف الدولة :

وأروع ، جيشه ليـــل بهيم وغـرته ، عمود من صباح
صفوح ، عند قدرته ، كريم قليل الصفح ما بين الصفاح
فـكان ثباته للقلب قلبا وهيبته جنـــاحا للجناح

أما ما يثيره مثل هذا القدوم : من انفعالات قوية ، فلم يتعرض له أبو فراس .

ولم يقارب أبو فراس صاحبه كذلك ، عندما تحدثا عن معركة بنى كلاب ، التى دارت سنة ٣٤٢ هـ ، فأوقع سيف الدولة بهم ، وملك الحريم فأبقى عليه ، وكان الشاعران معه ، فى تلك المعركة ، فقال أبو الطيب بعد رجوعه من تلك الغزوة قصيدة ، صور فيها حزم سيف الدولة ، وجده فى طلبهم بجيش لجب ، لم يلبث أن فر أمامه العدو ، وتشتت أحلافه فى خوف وذعر ، وكيف أمنت النساء فى كنفه ، أن يتعرضن للأسر والمهانة ، ولم ينس المتنبى أن يعطف قلب الأمير على هؤلاء العصاة ، الذين هم فى الواقع مادة جيشه ، فى حروبه مع الروم . بدأ المتنبى قصيدته بقوله :

بغيرك راعيا ، عبث الذئاب وغيرك صارما ، ثلم الضراب

وفيها يصف طلبه للعدو :

طلبتهم على الأمواه ، حتى تخوف أن تفتشه السحاب
فبت لياليا ، لا نوم فيها تخب بك المسومة العراب
يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب

ومنها يصف نساء عدوه :

فعدن ، كما أخذن ، مكرمات عليهن القلائد ، والملاب
يثبنك بالذى أوليت ، شكرا وأين من الذى تولى ، الثواب
وليس مصيرهن إليك شينا ولا فى صونهن لديك ، عاب

وكرس معظم القصيدة لاستعطاف الأمير ، استعطافا رقيقا ، منه قوله :

وكيف يتم بأسك فى أناس تصيبهم ؛ فيؤلمك المصاب
ترفق أيها المولى ، عليهم فإن الرفق بالجانى ، عتاب
وإنهم عبيدك حيث كانوا إذا تدعو لحادثة أجابوا

أما أبو فراس فقد خصص لتلك المعركة من قصيدته الرائية سبعة أبيات فحسب ، كان معظمها فى وصف النساء آمنات مصونات ، إذ يقول :

وقد يكبر الخطب اليسير ، وتجتنى أكابر قوم ما جناه الأصاغر
كما أهلكت « كلبا » غواة جناتها وعم « كلابا » ما جنته « الجعافر »
شرينا ، وبعنا بالسيوف نفوسهم ونحن أناس بالسيوف نتاجر
وصنا نساء ، نحن أولى بصونها رجعن ولم تكشف لهن ستائر .. ألخ

ومن ذلك يبدو لنا أن ما تعرض له الشاعران من وقائع سيف الدولة إلى ذلك الحين ، مختلف فى اتجاهه وطريقة تأليفه ، فبينما المتنبى ينظم القصيدة عقب الموقعة ، فيشفى نفسه ونفس أميره من الحديث عنها ، إذا بنا نجد أبا فراس صامتاً . ولا ريب أن شيئاً من ذلك يعود إلى صغر سن أبى فراس ، فقد كان فى تلك المعارك التى تحدثنا عنها ، بين السابعة عشرة والرابعة والعشرين ، بينما كان المتنبى يقطع العقد الرابع من عمره ويبدأ العقد الخامس ، ناضج الشعر والعقل والثقافة ، ولست أشك فى أن عداء أبى فراس له ، كان يعود قسم كبير منه إلى تفوق المتنبى تفوقاً لا يقارَب ، فى وصف هذه المعارك ، مما جعله أثيرا لدى سيف الدولة .

لم يقف أبو فراس فى تسجيل وقائع سيف الدولة ، عند حد القصيدة الرائية التى تم إنشاؤها فى أغلب الظن سنة ٣٤٤ هـ ؛ فقد أنشأ قبل هذه القصيدة قصيدة بائية ، سجل فيها حوادث ثورة تكاد تكون عامة ضد سيف الدولة . ولأنه أنشأ لهذه الحوادث المهمة قصيدة خاصة ، لم يتحدث عنها فى رائيته المطولة ؛ فقد حدث فى صفر ، سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ، أن تحالف بنو عامر بن صعصعة وجيران لهم كثير ، على مخالفة سيف الدولة ، واجتمعت إليهم طيىء وكلب ، وكل من ينزل بالشام من كعب وكلاب ، وسروج سليمة ، وبشاطىء الفرات ، ونواحى الرقة ، واتفقوا على مقاتلته ومناجزته ، وأوقعوا بعامله بقنسرين ، وهو الصباح المخارق ، فنهض سيف الدولة ومعه ابن عمه أبو فراس حتى أوقع بهم ، وقتل وجوههم وسراتهم ، وقدم أبا فراس فى قطعة من الجيش ، فلم يزل يتبعهم يقتل ويأسر ، حتى ألحقهم بالغوير ، واتبعهم سيف الدولة ، حتى لحقهم بتدمر ، فقتلهم وأهلكهم ،

عطشا وقتلا « بالسماوة » وأرضها ، ثم سار إلى « بنى نمير » وهى بالجزيرة ، فوجدهم قد بذلوا الطاعة ، ونزلوا على حكمه ، فصفح عنهم ، وأحلهم بالجزيرة .

أثار نصر سيف الدولة على هذه الثورة العنيفة خواطر الشعراء ، فأنشأ أبو فراس قصيدة مطولة ، كما نظم ابن ورقاء الشيبانى قصيدة ، يهنىء فيها الأمير بهذه الغزاة ، ويفاخر مضر بأيام بكر وتغلب ، فى الجاهلية والإسلام ، وأولها :

أرسما «بسابروج» أبصرت ،عافيا فأذكرك العهد الذى كنت ناسيا

أما أبو الطيب فلم يشهد حوادث هذه المعركة ، ولكن سيف الدولة وصفها له ، فأنشأ فيها قصيدتين ، إحداهما قافية ، والثانية رائية .

بدأ أبو فراس قصيدته بغزل باك حزين ، وأى منظر يثير البكاء أكثر من رؤية القتلى ، مجندلين هنا وهناك ، قال :

أبت عبراته إلا انسكابا ونار ضلوعه إلا التهابا
ومن حق الطلول علىّ ألا أغب من الدموع لها سحابا
وما قصرت فى تسآل ربع ولكنى سألت ، فما أجابا

وهذا المنظر الحزين قد أثار فيه خواطر حزينة ، كألمه لرؤية الشيب يملأ فوديه ، وهو فى ريعان الشباب :

رأيت الشيب لاح،فقلت : أهلا وودعت الغواية والشبابا
وما إن شبت من كبر ، ولكن رأيت من الأحبة ما أشابا
بعثن من الهموم إلىّ ركبا وصيرن الصدود لها ركابا

وبعد هذا الغزل الباكى الذى أثارته هذه المناظر المحزنة ، وربما اندفع إليه بطريق غير شعورى — أثار فيه هذا النصر المؤزر الذى شارك فى نيله ، كل عوامل الزهو والفخار ، وأعجبه خضوع القبائل بعد هزيمتها ، وتفرد أسرته فيها بالسلطان ، فقال :

ألم ترنا أعز الناس جارا وأمنعهم ، وأمرعهم جنابا

تفضلنا الأنام ، ولا نحاشى ونوصف بالجميل ، ولا نحابى

وأجاد أبو فراس كل الإجادة ، عندما حدثنا عن هبوبهم مع سيف الدولة مهطعين ، لا يلوون على شيء ، قد ظفروا بفضل تربية سيف الدولة لهم ، وتهذيبه إياهم . وأبو فراس فى ذلك مثال الجندى المخلص ، الذى يتفانى فى حب قائده ، حتى يفنى فيه ، واستمع إليه يقول :

ولما ثار سيف الدين ، ثرنا كما هيجت آساداً غضابا
أسنته ، إذا لاقى طعانا صوارمه ، إذا لاقى ضرابا
دعانا ، والأسنة مشرعات فكنا عند دعوته الجوابا
صنائع فاق صانعها ، ففاقت وغرس طاب غارسه ، فطابا
وكنا كالسهام ، إذا أصابت مراميها ، فراميها أصابا

ومضى أبو فراس — وقد كان من أبطال المعركة — يتبع الجيش فى سيره أنى مشى ، وهو يمشى مجداً يختزل الطريق ، يسرى الليل ، كى يصل إلى عدوه فى سرعة ، ليقضى عليه ، حتى إذا انتبه العدو ، وجد نفسه محاطا بجيش ، تعج به الأرض عجيجا ، وتصطخب به النواحى اصطخابا ، فتنادى الحلفاء ، حتى سالت بهم الشعاب ، وجيش سيف الدولة من ورائهم مجد ، يمضى هنا ، ويسرع إلى هناك ، يأسر هؤلاء ، ويقتل من هؤلاء ، ويجلى أولئك عن أرضهم ، ويحل غيرهم مكانهم ، حتى شُرِّد المدافعون فى كل مكان . ويكثر أبو فراس من ذكر الأماكن والقبائل ، لتكون شاهد صدق على دعواه . ثم مضى الجيش إلى نمير ، وهناك أقبلوا تائبين مبدين خضوعهم ، فعفا عنهم الأمير ، وأحلهم الجزيرة ، بعد خوف ، واستمع إلى هذا التصوير الجميل فى شعر أبى فراس :

أمام مشيع ، سمح بنفس يعز على العشيرة أن يصابا
ويأمرنا ، فنكفيه الأعادى همام لو يشاء كفى ، ونابا
فلما أيقنوا أن لا غياث دعوه للمغوثة ، فاستجابا

وعاد إلى الجميل لهم ، فعادوا وقد مدوا لصارمه الرقابا
أحلهم الجزيرة ، بعد يأس أخو حلم إذا ملك العقابا
ديارهم انتزعناها اقتسارا وأرضهم اغتصبناها اغتصابا
ولو شئنا حميناها البوادى كما تحمى أسود الغاب غابا
إذا ما أنفذ الأمراء جيشا إلى الأعداء ، أنفذنا كتابا
أنا ابن الضاربين الهام قدما إذا كره المحامون الضرابا
ألم تعلم ، ومثلك قال حقاً بأنى كنت أثقبها شهابا

فأنت ترى أبا فراس يصف لك القائد سيف الدولة ، محبباً إلى جنده ، لا يضن بنفسه فى الوغى ، ويشركهم فى حومة الدفاع ، ثم يصف لك يأس أعدائه من النصر ، وقدومهم إليه خاضعين منيبين ، وأجاد فى تصوير خضوعهم بقوله : « عادوا ، وقد مدوا لصارمه الرقابا » . وقد استطاع سيف الدولة أن يذيقهم الأمن بعد الخوف . وكأن هذا التأديب العنيف لهؤلاء القبائل ، قد أوحى إلى الشاعر بأنهم لن يحتاجوا إلى الالتجاء إلى السيف مرة أخرى ، بعد أن ذاق العصاة هذا البأس الشديد ، وأن كتاباً يرسل إلى الثائرين بعدئذ ، كفيل بأن يردهم إلى الطاعة والنظام .

كان سيف الدولة خليقاً أن يكتفى بقصيدة ابن عمه ، فى وصف تلك الوقائع ، ولا سيما أن المتنبى لم يكن حاضرها ، ولكن يخيل إلى ، أن ما فيها من مدحه لم يشف نفسه ، وأن أبا فراس قد أشرك نفسه معه ، فى كل موضع فخار ، بل لقد ختمها — كما رأيت — بقوله : « أنى كنت أثقبها شهابا » ؛ فطلب سيف الدولة من أبى الطيب ، بعد أن وصف له المعارك ، أن ينشىء فيها شعرا ، فأنشأ قصيدة بدأها بذكريات عزيزة لديه ، وربما كانت ذكريات أيام جهاده الأولى فى الصحراء ، وقريب أن تثير مثل هذه الحوادث تلك الذكريات ، قال :

تذكرت ما بين العذيب و بارق مجر عوالينا ، ومجرى السوابق
ومحبة قوم يذبحون قنيصهم بفضلة ما قد كسروا فى المفارق

و بعد غزل رقيق ، فى غيداء وأغيد ، و بعض حكم أوحى المقام بها ، دخل فى الغرض الذى أنشئت له القصيدة ، فبدأ ذلك باستفهام تعجبى ، من تفكير عقيل فى الثورة ، والخروج على الطاعة ، فقال :

برأى من انقادت عقيل إلى الردى و إشمات مخلوق ، و إسخاط خالق

ثم تحدث عن الحرب ، التى دارت بين سيف الدولة والثائرين عليه ، ولكن كان لغيبته عن المعركة أثره ، فى ضعف وصفها ، فلم يشعرك بحركة الجيش ، والتقاء الجيشين ، ومطاردة أحدهما لصاحبه ، مما أجاد فيه أبو فراس ، وتفوق به على صاحبه . ولكن المتنبى تنبه إلى الباعث الذى دفع الثوار إلى الثورة ، واعتقادهم النجاح فيها ، فقد ظنوا أن سيف الدولة ، وقد اعتاد حياة الحاضرة ، لا يلبث أن ينهزم فى الصحراء ، ولا يقوى على حرب القفار ، فرأوا من سيف الدولة ما انهار له أملهم ، من قدرة على الصبر فى البيداء ، والمعرفة بدروبها ، وقد قال فى ذلك المتنبى :

توهمها الأعراب سورة مترف تذكره البيداء ظل السرادق
فذكرتهم بالماء ساعة غبرت سماوة كلب فى أنوف الحزائق
وكانوا يروعون الملوك بأن بدوا وأن نبتت فى الماء نبت النلافق
فهاجوك أهدى فى الفلا من نجومه وأبدى بيوتاً من أداحى النقانق
وأصبر عن أمواهه من ضبابه وآلف منها مقبلة للودائق

وتلمح فى شعر المتنبى أسفا منه على أن شغلته تلك الثورة عن حرب الروم ، إذ يقول :

فما حرموا بالركض خيلك راحة ولكن كفاها البرقطع الشواهق
ولا شغلوا صم القنا بقلوبهم عن الركز ، لكن عن قلوب الدماسق

وصور المتنبي نميرا ، وقد أعدوا رماحا من الخضوع ، استطاعوا بها أن يهزموا جيوش سيف الدولة ، ولكن أبا فراس كان أدق تصويراً لخضوعهم وأقوى . ولعل هذه القصيدة لم تقنع سيف الدولة ، ولم يرها مكافئة للجهود التي بذلها ، في كبح جماح العصاة الثائرين ، فوصف له المعارك مرة أخرى ، وربما أراد سيف الدولة ألا يستمر في عقاب هؤلاء العصاة ، وأن يسبغ عليهم عفوه ، فأوحى بذلك إلى شاعره ، ليكون ذلك وسيلة إلى العفو عنهم ، فأنشأ أبو الطيب قصيدة أخرى ، هجم فيها على غرضه ، لم يقدم له بغزل ولا نسيب ؛ فلمس دوافع هذه الثورة وعوامل نموها ، وأنها هذا الضبط والنظام ، الذي لم تألفه العرب ولم تعتده ، وقد أعجبهم ما لديهم من جياد وفرسان ، فسولت لهم أنفسهم الخروج على النظام ، وشق عصا الطاعة ، قال المتنبي :

وفيـــك إذا جنى الجاني أناة تظن كرامة ، وهي احتقار
وأخـــذ للحواضر والبوادي بضبط ، لم تعـــوده نزار
تشممه شميم الوحش إنسا وتنكره ، فيعروها نفـار
وما انقادت لغيرك في زمان فتدري ، ما المقادة والصغار ؟

وأجاد المتنبي في وصف الحرب التي دارت بين سيف الدولة والثائرين ، وكيف فروا مهطعين ، لا يلوون على شيء :

مضوا متسابق الأعضاء فيه لأرؤسهم بأرجلهم عثار
يشلهم بكل أقب ، نهـــد لفارسه على الخيل الخيار
وكل أصم ، يعسل جانباه على الكعبين منه دم ممـار
يغادر كل ملتفت إليـه ولبتـــه لثعلبه وجار

ومضى أبو الطيب في وصف هذه الحرب ، حتى إذا انتهى إلى أن العصاة :

يرون الموت قـداما ، وخلفا فيختارون ، والموت اضطرار

مضى يستعطف سيف الدولة عليهم ، بشتى ألوان الاستعطاف ، ووقف على

ذلك قسما كبيرا من قصيدته ، مما يدل على أن ذلك غرض قصد إليه ، أو أوحى إليه به ، وهو مع هذا الاستعطاف ، لا يمس عواطفهم بما يزرى بهم ، أو يحقرهم ، فيقول :

بنو كعب وما أثرت فيهم ... يد ، لم يدمها إلا السوار
بها من قطعه ألم ونقص ... وفيها من جلالته افتخار
لهم حق بشركك فى نزار ... وأدنى الشرك فى أصل جوار
لعل بنيهم لبنيك جند ... فأول قرح الخيل المهار

وأنت ترى من كل ما ذكرناه ، أن أبا فراس ملك عليه كل عواطفه ، ما أبلاه فى هذه المعارك ، وما ناله فيها من ظفر ، فلم يشد بغيره ، ولم يتحدث عن سواه ، أما أبو الطيب فلم يكن يكتفى منه بذلك فحسب ، بل له دور اجتماعى ، يقوم به فى بلاط سيف الدولة ، هو الإشادة ببطولة الأمير حينا ، وتنبيه العصاة إلى ما فى ثورتهم : من شغل سيف الدولة عن الروم عدوهم المشترك ، حيناً آخر ، والعمل على إصلاح ذات البين ، بين الأمير ورعيته ، لأنهم جنده الذين عليهم يعتمد فى جهاده . ثم هل لى أن أنبه إلى إغفال أبى الطيب للدور الذى قام به أبو فراس فى تلك المعركة ، وكان دوراً له قيمته وخطره ، كما ذكر التاريخ ، وكما سجله أبو فراس فى شعره ؟ !

ورثى الشاعران أبا وائل تغلب بن داود سنة ٣٣٨ هـ ، ولم تكن سن أبى فراس تزيد على الثمانية عشر . وهنا نجد الفرق فى اتجاه الشاعرين واضحا ، ولا نتردد فى أن نقول : إن شعر أبى فراس منشؤه الحزن الصادق ، فكان أقوى دلالة على هذا الحزن ، بينما كان الباعث للمتنبى على هذا الرثاء ، هو ما يجب عليه من مجاملته للأمير سيف الدولة ، ولهذا نرى أبا فراس ، قد كرس قصيدته كلها لأبى وائل وحزنه عليه ، بينما ترى المتنبى يكرس لذلك أقل القصيدة ، أما معظمها فللحديث عن سيف الدولة ، يحدثه حينا عن فدائه لأبى وائل يوم أسر ، ويعزيه

حيناً ، داعياً له بطول العمر ، حتى يعزى بكل مولود . ولا تلمس فى القصيدة حزناً قوياً عنيفاً ، كهذا الذى تلمسه فى قصيدة أبى فراس ، التى كانت أكثر تصويراً لسمات أبى وائل ، وأدل على الحزن عليه ، وإن أسرف — وله من سنه عذر — فى إظهار عواطفه ، إذ يقول :

كأنما دمعى من بعده صوب سحاب ، واكف ، وابل
أرى المعالى ، إذ قضى نحبه تبكى ، بكاء الوالد الثاكل

ولكنك تشعر باللهفة والحزن عليه ، عند ما تقرأ قوله :

ما أنا أبكيه ، ولكنما تبكيه أطراف القنا الذابل
ما كان إلا حدثاً نازلا موكلا بالحدث النازل
دان إلى سبل الندى والعلا ناء عن الفحشاء ، والباطل
كان ابن عمى إن عرا حادث كالليث ، أو كالصارم الصاقل
كان ابن عمى عالما ، فاضلا والدهر لا يبقى على فاضل

أما قصيدة المتنبى فلعل أقوى ما فيها هو حديثه عن نفسه ، ومقارعته للخطوب ، حين يقول :

إن نيوب الزمان تعرفنى أنا الذى طال عجمها عودى
وفىّ ما قارع الخطوب ، وما آنسنى بالمصائب السود

وأما قوله :

فإن صبرنا ، فإننا صبر وإن بكينا ، فغير مردود
وإن جزعنا له ، فلا عجب ذا الجزر فى البحر غير معهود

فلا تشعر فيه بألم الفراق ، الذى تحس به فى شعر أبى فراس .

ورثى الشاعران أخت سيف الدولة سنة ٣٥٢ هـ ، وهما بعيدان عنه ، أما أبو فراس فكان فى الأسر ، وأما المتنبى فكان قد فارقه منذ سنة ٣٤٦ هـ ، وأرسلها إليه وهو بالكوفة ، وافتتحها بقوله :

يا أخت خير أخ ، يا بنت خير أب كناية بهما عن أشرف النسب

وهى قصيدة طويلة ، تصرف فيها بين تأبين الفقيدة ، ومشاركة أخيها فى حزنه ، إذ يقول له :

طوى الجزيرة ، حتى جاءنى ، خبر فزعت فيه بآمالى إلى الكذب
حتى إذا لم يدع لى صدقه أملا شرقت بالدمع ، حتى كاد يشرق بى
أرى العراق طويل الليل مذ نعيت فكيف ليل فتى الفتيان فى حلب ؟!
يظن أن فؤادى غير ملتهب وأن دمع جفونى غير منسكب
بلى ، وحرمة من كانت مراعية لحرمة المجد ، والقصاد ، والأدب

وختمها بما أثاره الموت فى نفسه ، من خواطر حزينة .

أما قصيدة أبى فراس فقصيرة ، لا تتجاوز أحد عشر بيتاً ، أوصاه فى أولها بالحزن لا بالصبر ، وننتقد أبا فراس فى قوله :

إنى أجلك أن تكفى بتعزية عن خير مفتقد يا خير مفتقد

فالاستسلام للحزن والبكاء ، ليس فيه من ضبط النفس ، ما هو خليق بأن يستمسك به عظماء الرجال ، ولكن لعل أبا فراس استمد وحيه من حاله فى الأسر ، وجزعه من البقاء فيه ، وختم قصيدته بتذكيره سيف الدولة بأنه أسير لم يفده ، مع أنه يفديه بنفسه وأهله وولده ، إذ يقول :

هذا الأسير المعنى ، لا فداء له يفديك بالنفس ، والأهلين ، والولد

ووصف الشاعران عيداً حزيناً ، كان فيه أبو فراس أسيرا ، لدى الروم ، وكان فيه المتنبى هارباً من مصر ، بعد أن أخفقت آماله فيها ، وسوف نتحدث عن ذلك فى فصل خاص ، نضيف إلى الشاعرين فيه وصف المعتمد بن عباد ، لعيد أقبل عليه ، وهو فى الأسر .

واختلفت طبيعة الفخر عند الشاعرين ، فبينما كان ماضى أسرة أبى فراس مصدر فخار له كما رأينا ، لم يكن المتنبى ممن يتحدث عن أسرته ، وكان يجعل

نفسه مصدر فخار هذه الأسرة ، يقول لجدته فى رثائها :

ولو لم تكونى بنت أكرم والد لكان أباك الضخم ، كونك لى أما

وتمدح أبو فراس بالكرم ، وطوى المتنبى ذكره . وافتخر المتنبى بالشعر ولم يجعله أبو فراس من كبير مفاخره ، ولم يغرق أبو فراس فى الفخر بنفسه ، كما فعل المتنبى ، إذ قال :

أى محل أرتقى أى عظيم أتقى ؟ !
وكل ما قد خلق الله ، وما لم يخلق
محتقر فى همتى كشعرة فى مفرق

ولم ينشىء المتنبى قصائد فى الفخر بنفسه ، كما فعل أبو فراس ، وإنما كان يدخل حديثه عن نفسه والفخر بها فى ثنايا قصائده .

و برغم ما بين الرجلين من نفور ، نرى أبا فراس قد تأثر المتنبى ، فى بعض ما جاء به من الشعر ، نلمس ذلك فى قول المتنبى :

ما كل من طلب المعالى نافذا فيها ، ولا كل الرجال فحولا

وقول أبى فراس :

فما كل من شاء المعالى ينالها ولا كل سباق إلى المجد يهتدى

وقوله أيضا :

وما كل طلاب من الناس بالغ ولا كل سيار إلى المجد واصل

وفى قول المتنبى :

وترى المروءة ، والفتوة ، والأبوة ، فى كل مليحة ضراتها

وقول أبى فراس :

كأن الحجا، والصون، والعقل، والتقى لدىّ ، لربات الحجال ، ضرائر

وفى قول المتنبى :

هم المحسنون الكر فى حومة الوغى وأحسن منه ، كرهم فى المكارم

وقول أبى فراس :

ومن لم يشاهد كر قومى فى الوغى فها ، فليشاهد كرهم فى المكارم

ويكاد يتفقان فى بيت ، هو قول المتنبى يمدح كافورا سنة ٣٤٩ هـ :

إذا نلت منك الود ، فالمال هين وكل الذى فوق التراب تراب

وقول أبى فراس وهو أسير [بعد سنة ٣٥١ هـ] :

إذا صح منك الود ، فالكل هين وكل الذى فوق التراب ، تراب

عيـــد حزين

بين ثلاثة من الشعراء

اما أولهم فالمتنبى ، الذى تحطمت آماله فى كافور ، وخشى على نفسه ، سوء المغبة ، وأصبحت حياته فى مصر مظلمة موحشة ؛ فمضى ، بعد العدة للرحيل عنها ، ورأى فى العيد ، وانشغال القوم به ، أفضل فرصة لهربه ، فهو إذ يستقبل العيد ، خائفاً يترقب ، حاقدا على هذا الذى لم يظفر منه بأمل ، ولم تتحقق على يديه له أمنية — فاضت عاطفته بقصيدة طويلة ساخطة ، أودع فيها ما جاش بصدره يومئذ ، من انفعالات عنيفة ثائرة ، تلمسها من أول كلمة فى قصيدته ، التى بدأها بقوله :

عيد ، بأية حال عدت يا عيد بما مضى ، أم لأمر فيك تجديد ؟!

فأنت تحس بالغضب ، والحنق ، والسخرية ، من أن يكون هذا اليوم القادم عليه عيدا ، كما تحس بذلك كله ، من خطابه للعيد ، وسؤاله إياه : أأقبل عليه ، بما اعتاد أن يأتى به ، من آمال قد تبددت ، وأحلام تحطمت ، أم يحمل له فى طياته ، فرجا من كربه ، وتحقيقا لبعض أمله ؟ ولكن المتنبى ، لم يمض بعيدا فى رجائه ، بل تنبه إلى الوحشة ، التى تحيط بحياته ، فى دار غربة ، نائيا عمن يحوطه بالحب والحنان ، فقال :

أما الأحبة ، فالبيداء دونهم فليت دونك بيدا ، دونها بيد

وكأنه يعتذر إلى نفسه من فراق هؤلاء الأحبة ، وأنه ما دفعه إلى هذا الفراق ، سوى طلابه للعلا ، وأمله فى نيل المجد ، وقد أقبل المتنبى إلى مصر ، وملء إهابه آمال ، فيقول :

لولا العلا ، لم تجب بى ماأجوب بها وجناء حرف ، ولا جرداء قيدود

ثم يأخذ المتنبي فى الحديث عن قلبه الذى حطمه الدهر ، فلم يعد متفتحا لجمال آسر ، ولا مأخوذا بسحر الأغاريد ، وكأن ما يناله مما يعده الناس متعة ، هم وتسهيد . وكيف تحلو له تلك المتع ، وهو بعيد عن أهله ، وأحبة نفسه ، ويبدو أن طيف هؤلاء الأهل ، قد استيقظ بعنف فى خياله ، بعد أن وجد أن بعده عنهم لم يأت من الثمار بما كان يرجوه ، ويمضى متحدثا عن خيبة آماله فى مصر ، التى لم يجن منها سوى وعود لم تتحقق . وهنا يصب المتنبى جام غضبه على كافور ، ولا يدع نقيصة ، إلا وسمه بها ، وكأن عيب كافور ، قد طغى فى نظره حتى صار عيبا فى المصريين جميعا ، أو فى حاشية الأمير على الأقل ، فأخذ ينعى عليهم كذبهم ، وبخلهم ، ودناءتهم ، وقذارتهم ، ويقول :

إني نزلت ، بكذابين ، ضيفهم عن القرى ، وعن الترحال ، محدود
جود الرجال من الأيدى ، وجودهم من اللسان ، فلا كانوا ، ولا الجود
ما يقبض الموت نفسا من نفوسهم إلا وفى يده من نتنها ، عود
من كل رخو وكاء البطن ، منفتق لافى الرجال ، ولا النسوان ، معدود

ويمضى المتنبى فى هجاء كافور ، منددا بسادات مصر ، الذين تركوا كافورا ، يحكم ، ويسود ، وما خلق العبد للسيادة ، بل للضرب بالعصا . ولا أريد مناقشة المتنبى فى تلك الآراء ، التى أملاها عليه ثورته ، وإخفاقه فى آماله ، وكان قوى التعبير عن نقمته ، وغضبه .

والشاعر الثاني أبو فراس الذى أقبل عليه العيد ، وهو أسير فى بلاد الروم ، وقد اكتفى فى استقباله ، بتسجيل ما يملأ قلبه من الكرب ، ونفسه من العناء ، وما انسدل على ناظره من سواد ، حجب عن عينيه رؤية النور والجمال ، ثم مضى خياله يحلق فوق داره هناك ، بمنبج فى الشام ، فأحس بالوحشة تكتنف جنباتها ، ورأى أهله ، يستقبلون العيد ، لا كما اعتادوا استقباله ، فى طرب وبهجة . ولم

يروا فى طلعته حسنا ، ولا جمالا ، ويختم مقطوعته متعجبا من أحداث الدهر ، وأعاجيبه ، إذ يقول :

يا عيـــد ، ماعدت بمحبوب على معنى القلب ، مكروب
يا عيـــد ، قد عدت على ناظر عن كل حسن فيك محجوب
يا وحشـــة الدار التى ربها أصبح فى أثواب مربوب
قد طلع العيد على أهلها بوجه لا حسن ، ولا طيب
ما لى وللدهر ، وأحـدائه لقـد رمانى بالأعاجيب

وأبو فراس قد ركز فى هذه الأبيات القليلة ، ما دار بنفسه يومئذ من الحزن والأسى ، وعميق الذكريات ، ولم يوجه نقمته إلى أحد سوى الدهر .

والشـاعر الثالث ملك سيىء الحظ ، هو المعتمد بن عباد ملك إشبيلية بالأندلس ، فقد هاجمه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين سنة ٤٨٤ هـ ، وأسره ونفاه إلى أغمات ، فى جنوبى مراكش بإفريقية . وفى يوم عيد دخلت عليه بناته السجن ، وكن يغزلن للناس بالأجرة ، حتى لقد غزلن لمن كان فى خدمة أبيهن من قبل ، فلما دخلن عليه ، رآهن فى ثياب أخلاق ، فعادت إلى نفسه ، ذكريات حياته الهانئة السالفة ، ومجده الغابر ، وما كانت بناته يرفلن فيه : من سندس ، وإستبرق . واستمع إلى تلك الموازنة الحزينة ، فى قوله :

فيما مضى ، كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد فى أغمات ، مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار ، مبن عدم يغزلن للناس ، ما يمكن قطميرا

ثم يستمر فى تصويرهن ، وقد دخلن للتسليم عليه ، بأبصار خاشعة ، وقلوب كسيرة ، وأقدام حافية ، ووجوه يبدو عليها الهزال والضنى ، فيقول :

برزن نحوك للتسليم ، خاشعة أبصارهن ، حسيرات ، مكاسيرا
يطأن فى الطين ، والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا ، وكافورا

فهذه الصورة الزرية لبناته ، وسيمى الذل والهوان البادية على وجوههن ،

وحفاء أرجلهن ، كل أولئك قد أثار فى نفسه ، أشد الذكريات إبلاما ، واستمع إليه يوازن بين حاليه ، فيقول :

قد كان دهرك ، إن تأمره ، ممتثلا فردك الدهر منهياً ، ومأمورا

وهنا تبدو له الحياة ، وما قد يكون فيها من مجد حلما ، لا تلبث الأيام أن تبدده :

من بات بعدك فى ملك ، يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا

وهكذا استقبل هؤلاء الشعراء الثلاثة أعيادهم ، فى حزن وكآبة ، أما المتنبى فلآماله المحطمة ، وقد طال نفس قصيدته ، واستطاع أن يثير فى أنفسنا السخرية ممن كان سبب تحطيم هذه الآمال ، وأما أبو فراس فكان كالمناجى لنفسه ، الطاوى لأحناء فؤاده على داره البعيدة هناك فى منبج ، وأما المعتمد فإننا نبصر عبراته تتساقط من عينيه ، ونحس بزفراته ، ونسمع أناته ، ونتخيل تلك الأسرة البائسة ، وقد أحاطت بعائلها المهيض ، تندب حظها ، وتذكر أيام مجدها . وللعيد لدى الملوك بهجة ورواء ، وهو مظهر من مظاهر الأبهة ، ورفعة الشأن ، ومجد السلطان .

رائيته فى الشعر المعاصر

لم تظفر قصيدة فى شعر أبى فراس : من الشهرة ، بما ظفرت به قصيدته الرائية ، التى بدأها بقوله :

أراك عصى الدمع ، شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ، ولا أمر ؟!

فهى أكثر قصائده دوراناً على الألسنة ، وقد أغرت بعض الأدباء بتشطيرها حينا ، وتخميسها حينا آخر ، ومعارضتها مرة أخرى ، وممن شطر هذه القصيدة ، الأستاذ الكنانى الأبيارى سنة ١٨٩٦ م . وليس فى تشطيره من جديد ، سوى زيادة عدد الأبيات ، وكان عمل المشطر أن كرر المعنى ، أو فصله بعض التفصيل وهاك نموذجا لما فعل : قال أبو فراس :

ولا خـــير فى دفع الردى بمذلة كما ردها يوماً بسوأته عمــرو

فشطره الكنانى بقوله :

ولا خير فى دفع الردى بمـذلة إذا لم يكن عز ، فإن الردى خير
ومن يرتضى رد الردى بمعـرة كما ردها يوما بسوأته عمـــــرو؟!

وعلى هذا النسق يسير ، لا يأتى بمعنى جديد ، ولا يكمل معنى جاء به الشاعر الأول ، ولا ريب أن ما جاء به الكنانى شديد الضعف ، بموازنته بما جاء به أبو فراس . ثم عاد الكنانى فشرح الأصل والتشطير ، يشرح الكلمات اللغوية أولا ، ثم يعود إلى الشرح الإجمالى ، وسمى عمله : إيناس الجلاس ، بتشطير وشرح قصيدة أبى فراس .

وخمس هذه الرائية الجنبيهى ، المعاصر للكنانى ، وهذا التخميس أقل قوة من تشطير معاصره ، وقد أضعف القصيدة ، وأنهك معناها ، وكثيراً ما كان

يتلمس الوصول إلى البيت ، بمعان ليست فى الصميم ، كما ترى فى تخميس بيتى أبى فراس :

وإنى لنزال بكل مخـــوفة كثير إلى نزالها النظر الشزر
وإنى لجرار لكل كتيبة معودة ألا يخـــل بها النصر

خمسهما الجنبيهى بقوله:

وليس لها ما بين لين وعطفـة وبين الجفا والصد أدنى مسافة
لذا صرت منها فى ارتعاد ورجفة وإنى لنزال بكل مخـــــــوفة

كثير إلى نزالها النظر الشزر

فيا سعد ، مهلا ، ليس نأيى لوحشة من الأهل ، لا بل مزعجات محبة
وإنى من قوم ، كرام أعـزة وإنى لجـــرار لكل كتيبة

معودة ألا يخل بهـا النصر

فأنت ترى ضعف التأليف ، وكيف كان الشاعر يلتمس المعانى ، التى تصل به إلى البيت لأدنى ملابسة ، وكيف إن الجمع بين الغزل والفخر أضعف كليهما ، ولكنك تحس بقوة القصيدة ، منفردة عن التشطير والتخميس .

وعارض البارودى ، وهو فى المنفى ، تلك القصيدة الرائية ، التى أنشأها أبو فراس ، وهو فى الأسر ، وافتخر الشاعران فى القصيدتين ، وبدأ اهما بالغزل .

كانت طبيعة الغزل فى القصيدتين ، مستمدة من موقف الشاعرين ، فاقتبس الحديث عن الحب من ذلك الموقف مشاعره وإحساساته ، أما أبو فراس ، فقد أنشأ قصيدته فى أيام أسره الأولى ، عندما كان الأمل يملأ قلبه ، فى أن سيف الدولة سيسرع إلى فدائه ، وهو من أجل ذلك يبدى الجلد والصبر ، وإن كان لا يستطيع بينه وبين نفسه أن يخفى اللوعة والأسى ، فهو أمام الناس جلد صبور ، حتى إذا جن الليل وانفرد بكى ما شاء له البكاء .

هذا الخاطر الذى كان يملأ نفسه ، هو الذى أوحى إليه بهذا الشعور ، عندما تحدث عن الحب ، فقال :

أراك عصى الدمع ، شيمتك الصبر ... أما للهوى نهى عليك ، ولا أمر ؟!
بلى ، أنا مشتاق ، وعندى لوعة ... ولكن مثلى ، لا يذاع له سر
إذا الليل أضوانى ، بسطت يد الهوى ... وأذللت دمعاً ، من خلائقه الكبر
تكاد تضىء النار بين جوانحى ... إذا هى أذكتها الصبابة والفكر

وتستطيع أن ترى أثر موقفه فى مبدأ الأسر جليا ، فى غزل هذه القصيدة ، وأكاد ألمس فيها ، نوعاً من الرمز ، والإيماء ، وبهذا ، نستطيع أن نفهم ، كيف إنها علاته بالوصل حينا ، إذ يقول :

معللتى بالوصل ، والموت دونه ... إذا مت ظمآنا فلا نزل القطر

وكيف إنها تجاهلته ، حينا آخر :

تسائلنى ، من أنت ؟ وهى عليمة ... وهل بفتى مثلى على حاله نكر ؟!
فقلت كما شاءت ، وشاء لها الهوى : ... قتيلك ، قالت : أيهم ؟ فهو كثر
فقلت لها : لو شئت لم تتعنتى ... ولم تسألى عنى ، وعندك بى خبر
فقالت : لقد أزرى بك الدهر بعدنا ... فقلت : معاذ الله ، بل أنت ، لا الدهر
وما كان للأحزان لولاك مسلك ... إلى القلب ، لكن الهوى للبلا جسر

وينتقل أبو فراس بعدئذ ، انتقالا طبيعياً إلى الفخر بنفسه ، إذ يقول :

فلا تنكرينى ، يا ابنة ، العم ، إنه ... ليعرف من أنكرته البدو والحضر
ولا تنكرينى ، إننى غير منكر ... إذا زلت الأقدام ، واستنزل النصر

وهنا وجد المجال فسيحاً ، للحديث عن خصاله الحربية ومزاياه ، فتحدث عن أنه ميمون الطالع ، قائد مظفر ، لا يخشى المعارك المخوفة ، بل يخوض غمارها ؛ حتى ترتوى البيض ، وتشبع الذئاب والنسور ، لا يغتال عدوه ، ولا يفجؤه ، بل يرسل إليه النذر تخيفه ، وتحذره ، ثم يصور لك إقدامه فى صورة بارعة ، إذ يقول :

ويارب دار ، لم تخفنى ، منيعة طلعت عليها بالردى ، أنا ، والفجر

فهذا حصن منيع ، قد وثق بنفسه ، ولـكن لم يلبث الفجر أن قاد إليه الهلاك ، عندما صعد إليه أبو فراس ، يحمل له الردى . وتحدث الشاعر عن احترامه للمرأة ، حتى لا تستطيع شجاعته إلا أن تلقى بسلاحها أمامها ، فيعفو عن قومها ، ويرد إليهم أسلابهم ، ثم هو رجل ، لا يطغيه الغنى ، ولا يثنيه الفقر عن الـكرم ، وهو فى كل هذا الحديث ، قوى ، يشيع فى أبياته روح الأمل

وانتقل بعدئذ إلى حديث أسره ، فلم ينسبه إلى ضعف بدر منه ، بل إلى قضاء غلاب ، لا يستطيع امرؤ أن يفلت منه .

وقد كان الأمل يملأ شعره فى هذه القصيدة ، ولهذا رأيناه يستقبل الأسر ، بصدر رحب ، لإيمانه بأن قومه ، لا بد ذاكروه ، وفادوه ، فليس عندهم من يملأ مكانه ، إذا غاب .

ويختم أبوفراس قصيدته كما سبق أن ذكرنا ، مفتخراً بقومه ، الذين يحتلون فى قومهم ، مركز الصدارة ، ولا يقبلون دونه مكانا .

أما البارودى ، فقد كان غزله كذلك ، مستمداً من موقفه ، فإذا كان أبو فراس مؤملا ، يخفى آلامه ، فإن البارودى — وقد جفت آماله — لا يجد بداً من أن يتحدث ، ببعض ما يشعر به ، من أسى وحزن ، وإن كان يخفى فى قلبه من اللوعة أكثر مما يبين ، فتلون غزله بهذا اللون ، فرأيناه يبوح بالحب ، لا ينهاه عن ذلك زجر ، ولا عتاب ، وهو يرى الحب — ور بما كان يرمز به إلى مصيره — أمراً مقدوراً ، ليس لامرىء فيه من نهى ، ولا أمر ، وإنه ليقاسى من هذا الحب أعنف ما يقاسيه إنسان ، ومع هذا لا يبدى كل ما يحمله صدره من الوجد ، ولا يترك دموعه تهمى ، لا صبرا فى انتظار تحقيق أمل ، ولـكن حياء وكبرا ، واستمع إليه يقول :

طربت ، وعادتنى المخيلة ، والسكر وأصبحت لا يلوى بشيمتى الزجر

كأنى مخمور ، سرت بلسانه معتقة ، مما يضن بها التجر
صريع هوى، يلوى بى الشوق، كلما تلألأ برق ، أو سرت ديم غزر
إذا مال ميزان النهار ، رأيتنى على حسرات ، لا يقاومها صبر
يقول أناس : إنه السحر ضلة وما هى إلا نظرة دونها السحر
فكيف يعيب الناس أمرى ، وليس لى
ولا لامرئ ، فى الحب ، نهى ، ولا أمر
ولو كان مما يستطاع دفاعه لألوت به البيض المباتير والسمر
ولكنه الحب الذى لو تعلقت شرارته بالجمر ، لاحترق الجمر
على أننى كاتمت صدرى حرقة من الوجد ، لا يقوى على حملها صدر
وكفكفت دمعاً ، لو أسلت شئونه على الأرض ، ماشك امرؤ أنه البحر
حياء وكبرا ، أن يقال ترجحت به صبوة ، أو فل من غربه الهجر

فأنت ترى الغزل مستمداً من حاله ، ولو أنك جعلت ما يهواه وطنه ، وأدرت عليه الحديث لم تبعد .

لم يطل البارودى بعدئذ فى الحديث عن نفسه ، كما فعل أبو فراس ، بل اكتفى ببيت واحد ، يحمل خيبة الآمال ، إذ قال :

وإنى امرؤ ، لولا العوائق ، أذعنت لسلطانه البدو المغيرة ، والحضر

وكان المجال أمامه فسيحا ، لتعداد مواقفه فى الحرب والسياسة ، ولكن يبدو أن يأسه ساعتئذ ، قد تغلب عليه ، فصرفه عن الحديث عن ماض ، لا سبيل إلى استئنافه ، على عكس أبي فراس القوى الأمل فى أن يعود كما كان ، البطل المفدى ، وكان المجال فسيحا كذلك أمام البارودي ، للحديث عن نفيه ، والدفاع عن نفسه ، كما تحدث أبو فراس عن أسره ، ولكنه لم يفعل ، ولعله اكتفى فى ذلك ، بما تحدث به ، فى قصائد أخرى كثيرة .

أما الذى أطال الحديث فيه ، حتى استغرق معظم قصيدته ، على عكس

أبى فراس ، فحديثه عن آبائه ، وقد ذكروا أنه ينحدر من المماليك الشركسية ، فاتخذ من ذكراهم وسيلة ، يشبع بها عاطفته فى الفخر ، ويسلى نفسه بمصايرهم ، وسجل لهؤلاء الأسلاف شجاعتهم وكرمهم ، وهنا يستعير خيالا بدويا ، إذ يقول :

لهم عمد مرفوعة ، ومعاقل وألوية حمر ، وأفنية خضر
ونار لها فى كل شرق ومغرب لمدرع الظلماء ، ألسنة حمر
تمد يداً نحو السماء ، خضيبة تصافحها الشعرى ، ويلثمها النفر

وختم قصيدته ختاما يائسا حزينا ، رثى فيه قومه وقد مضوا ، وسوف يمضى على إثرهم :

لعمرك ما حى ، وإن طال سيره يعد طليقاً ، والمنون له أسر
وما هذه الأيام إلا منازل يحل بها سفر ، ويتركها سفر
فلا تحسبن المرء فيها بخالد ولكنه يسعى ، وغايته العمر

أما أبو فراس فقد ختم قصيدته ، مالئاً شدقيه ، من الفخر بقومه ، الذين كانوا يومئذ قابضين على الملك والسلطان .

هذا وقد ظفرت قصيدة أبى فراس ، بشهرة فى العالم العربى الحديث ، كما رأينا ، وغنت أم كلثوم بعض غزلها ، وسار على الألسنة بعض أبياتها كقوله :

ولكن إذا حم القضاء على امرىء فليس له بر يقيه ، ولا بحر

وقوله :

سيذكرنى قومى ، إذا جد جدهم وفى الليلة الظلماء ، يفتقد البدر

وقوله :

ونحن أناس ، لا توسط بيننا لنا الصدر دون العالمين ، أو القبر

وقوله : « ومن يخطب الحسناء لم يغلها المهر » .

وأما قصيدة البارودى ، فلم تظفر من الشهرة بنصيب .

أبو فـــراس

بين نقاد العرب والمستشرقين

يحفظ التاريخ أول ما يحفظ من هذه الآراء ، رأى أديب عاصر أبا فراس وتذوق شعره ، وأعجب ببلاغته ، وهو الصاحب ابن عباد (٣٢٦ — ٣٨٥هـ) . وقد وضع رأيه فى جملة موجزة ، كهذه الجمل التى كان يوقع بها ، وهو فى دست الحكم ، ولعل إيجازها هوالسر فى سرعة انتشارها ، وسهولة دورانها على الألسنة ، ويكاد كل من أرخ لأبي فراس ينقلها ، وكأنه يرى فيها صورة لما فى نفسه ، من الإعجاب بأبى فراس ، والتقدير لشعره ، وهى قول الصاحب : « بدىء الشعر بملك ، وختم بملك » يعنى امرأ القيس ، وأبا فراس .

هذه الجملة اعتراف من الصاحب بشاعرية أبى فراس ، وأن من جاء بعده لايدانيه فى تلك الشاعرية . ويشارك الصاحب فى الاعتراف بشاعرية أبى فراس ، كل من يتذوق شعره العاطفى الصادق . وأما حكمه بأن من جاء بعد أبى فراس لا يساويه ، فحكم نناقشه فيه ، فقد جاء بعده الشريف الرضى ، وأبو العلاء ، ولعل عذره فى هذا الحكم أنه لم يعش ويدرك نضج الشريف ، فإن الصاحب توفى ، وعند الرضى زهاء خمس وعشرين سنة ، فلم يكن فى هذه السن ، ممن يستطيعون أن يكسفوا شمس أبى فراس ، وأما أبو العلاء ، فكان فى نحو الثانية والعشرين من عمره ، لم يبلغ بعد مبلغ أبى فراس .

ومهما يكن من شىء ، فإن الصاحب كان معجباً بشعر أبى فراس ، أيما إعجاب ، ولعل أكبر أسباب إعجابه بهذا الشاعر ، ما كان له من شخصية قوية يتميز بها من باقى الشخوص ؛ روى الثعالبى أن بديع الزمان الهمذانى قال :

« قال الصاحب أبو القاسم يوماً لجلسائه ، وأنا فيهم ، وقد جرى ذكر أبى فراس : « لا يقدر أحد أن يزور على أبى فراس شعراً » ، فقلت : « ومن يقدر على ذلك وهو الذى يقول :

رويدك ، لا تصل يدها بباعك ولا تغر السباع إلى رباعك
ولا تعن العدو على ، إلى يمين ، إن قطعت فمن ذراعك »

فقال الصاحب : «صدقت » ، قلت : « أيد الله مولانا ، قد فعلت » .

الشق الأول من هذه الرواية يؤيد ما ذهبنا إليه من إيمان الصاحب بقوة شخصية أبى فراس ، أما الشق الثانى ، وهو استطاعة البديع أن يدخل فى شعر أبى فراس ما ليس فيه ، وتصديق الصاحب لذلك فأمر نشك فيه ، ونرجح أنه لم يقع ، ويبعثنا على الشك فيه ثلاثة أمور : أولها ما عرف عن مجالس الصاحب من الهيبة له والإجلال ، والتماس جلسائه ما يرضيه ، والتصديق لما يقول ، تصديقاً ربما لا يكون مبعثه الإيمان ، بل الرغبة فى نيل المنزلة عند الصاحب ، وحسن رضاه . والقصص فى ذلك كثيرة ، تدلنا على شدة إعجاب الوزير بنفسه ، وتلمس جلسائه ما يسره ويرضيه . وثانيها أن هذه القطعة بعيدة عن روح أبى فراس ، فهو لم يدع يوماً أعداءه ومنافسيه سباعا ، بل كانوا فى نظره صغاراً ، ولا أكاد أعتقد أن ذلك يخفى على فطنة الصاحب ، أو يغيب عنه ، ولقد علق الثعالبى على تلك القصة بقوله : ولعمرى إنه قد أحسن ، ولكن لم يشق غبار أبى فراس . وثالثها أن البيتين اللذين ذكرهما البديع ، ليسا بشاهدين لدعواه ، فليس فيهما ما ينفى قدرة أحد أن يدخل فى شعر أبى فراس ما ليس منه ، بل هى بعيدة عن ذلك كل البعد . والذى أرجحه أن البديع هو مخترع تلك القصة ، يبين بها ما طالما أدعاه من قوة بديهته .

نقل هذا الرأى عن الصاحب الثعالبى ، الذى ولد قبل وفاة أبى فراس (٣٥٠ — ٤٢٩ هـ) ، فى الفصل الذى عقده للشاعر ، فى كتابه : يتيمة الدهر ،

ويكاد هذا الفصل يكون أكبر فصل كتب عن أبى فراس فى العصور الأولى .

وكان الثعالبى شديد الإعجاب به ، يقول عنه فى أول هذا الفصل : « كان فرد دهره ، وشمس عصره ، أدبا وفضلا ، وكرماً ونبلا ، ومجداً وبلاغة وبراعة ، وفروسية وشجاعة ، وشعره مشهور ، سائر بين الحسن والجودة ، والسهولة ، والجزالة ، والعذوبة ، والفخامة ، والحلاوة ، والمتانة ، ومعه رواء الطبع ، وسمة الظرف ، وعزة الملك ، ولم تجتمع هذه الخلال قبله ، إلا فى شعر عبد الله بن المعتز ، وأبو فراس يعد أشعر منه عند أهل الصنعة ، ونقدة الكلام » .

وهذا الفصل يحوى قطعة من أخبار أبى فراس ، مع ابن عمه سيف الدولة ، وما أنشأه فيه من شعر ، ثم ذكر مختارات من شعره فى الفخر ، وقد يعلق على بعض ما يورده منها ، كما فعل عند ما روى قوله :

ولما ثار سيف الدين ثرنا كما هيجت آسادا غضابا
وكنا كالسهام ، إذا أصابت مراميها ، فراميها أصابا

قال الثعالبى : هذا أحسن ما قيل فى معناه ، وقد أخذه الأستاذ أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبى فى كتاب فتح . وكما فعل عند ما نقل قوله :

وما زادت عن العشرين سنى فما عذر المشيب إلى عذارى؟!

قال الثعالبى : أخذه من قول أبى نواس :

وإذا عددت السن كم هى؟ لم أجد للشيب عذرا للنزول براسى

وقال عند ما نقل بيت أبى فراس :

يقلن له : السلامة خير غنم وإن الذل فى ذاك المقال

ما أظرف هذا البيت ، وما أصدقه !

كما أنه فى بعض الأحيان ، يذكر الظروف التى أنشئت فيها القصيدة .

وعلى هذا المنوال يسير ، فيما اختاره لأبى فراس فى الإخوانيات ، والغزل ، والنسيب ، والأوصاف ، والتشبيهات ، والحكمة ، والموعظة .

وقد رأى الثعالبي أن يخص روميات أبي فراس بفصل خاص ، فدعاها من غرره ، وصدرها بقوله : « وقد كانت تصدر أشعاره في الأسر والمرض واستزادة سيف الدولة ، وفرط الحنين إلى أهله وإخوانه وأحبابه ، والتبرم بحاله ومكانه ، عن صدر حرج ، وقلب شج ، تزداد رقة ولطافة تبكي سامعها ، وتعلق بالحفظ لسلاستها » ، وقد نقل الثعالبي في هذا الفصل طائفة صالحة من هذه الروميات ، يذكر ظروف بعض القصائد ، ويعلق على بعض أبياتها ، كما فعل في فصوله السابقة ، وبعدئذ ينقل بعض مزدوجته الطردية ، وينقل أن الصاحب كتب على ظهر الجزء المشتمل على هذه المزدوجة :

أروح القلب ببعض الهزل تجاهلا مني ، بغير جهل
أمزح فيه مزح أهل الفضل والمزح أحياناً جلاء العقل

حتى إذا انتهى الثعالبي من ذلك قال : « قد أطلت عنان الاختيار من محاسن شعر أبي فراس ، وما محاسن شيء كله حسن ؟ ! وذلك لتناسبها ، وعذوبة مشارعها ، ولا سيما الروميات ، التي رمى بها هدف الإحسان ، وأصاب شاكلة الصواب ، ولعمري إنها ، كما قرأته لبعض البلغاء ، لو سمعته الوحوش أنست ، أو خوطبت به الخرس نطقت ، أو استدعى به الطير نزلت » .

وإذا كان الثعالبي قد عنى في كتابه ، بعرض نماذج كثيرة من شعره ، فانه لم يعن كثيراً بحياته ، ولا بتحليل نفسيته ، ولا بتحديد الحوادث ، ولا بإعطاء القارئ صوره صحيحة كاملة للشاعر .

وابن خلكان (٦٠٨ — ٦٨١ هـ) في كتابه وفيات الأعيان ، ينقل في الفصل الذي عقده لأبي فراس ما قاله الثعالبي في وصفه ، ذلك الوصف الذي صدر به مختاراته ، ولا يطيل ابن خلكان ، في إيراد أمثلة لشعره ، بل يكتفي بالقليل ، ثم يقول : « ومحاسن شعره كثيرة » . وينقل ابن خلكان لقول الثعالبي بلا تعليق عليه إقرار له .

و يمتاز صاحب الوفيات ، بإيراد نسب أبى فراس ، ومحاولة تحديد الحوادث البارزة فى حياته ، فهو يعنى بذكر تاريخ ولادته ، وتاريخ وفاته ، وتاريخ قتل أبيه ، وتاريخ أسره ، وهو فى ذلك ينقل الروايات المختلفة ، من غير أن يرجح بعضها على بعض غالبا ، لكنه استنبط من حديثه لابنته قبل موته أن أبا فراس لم يقتل ، أو يكون قد جرح وتأخر موته ، ثم مات من الجراحة . كما أنه ينقل الروايات المختلفة فى أسره وسبب قتله ، ولا يرجح واحدة على واحدة ، و إنما يكتفى بقوله : « والله أعلم » .

ولم يظفر أبو فراس بعد ذلك بدراسة مفصلة . إلى عصرنا الحاضر ، واكتفى مؤرخوه بدراسة بعض نواحى حياته ، كحديث أسره أو موته ، و بأحكام عامة ، على شعره .

وفى عصرنا عقد الأستاذ جورجى زيدان له فصلا ، فى الجزء الثانى من كتابه : تاريخ آداب اللغة العربية . وليس فى هذا الفصل شىء جديد ، بل أخذ المؤلف كل ما فيه أخذا ، يكاد يكون حرفيا من كتابى الثعالبى ، وابن خلكان ، هذا إذا استثنينا أن المؤلف أخبرنا بأن الأستاذ دوفوراك ، قد عنى بترجمة بعض أشعاره إلى الألمانية ، حيث طبعت فى ليدن سنة ١٨٩٥ م .

أما الأستاذ فؤاد أفرام البستانى ، فقد نشر فى مجلة المشرق سنة ١٩٢٨م (من ص ٢٦٥ — ٢٧٤) بحثاً مطولا عن أبى فراس ، وقد جعل هذا البحث مقدمة للمختارات ، التى اختارها من شعر أبى فراس ، ونشرها فى مجموعته : الروائع .

بدأ البستانى هذه الدراسة ، بتلخيص رأيه فى أبى فراس، إذ قال : أبو فراس شاب لم يمتع بشبابه ، وأبو فراس أمير لم يوفق فى إمارته ، وأبو فراس شقى توفرت أسباب شقائه ، وأبو فراس شاعر بملاهى الشباب ومفاخر الإمارة وأعباء الشقاء ؛ ثم أخذ يدرس أبا فراس : الرجل ، فأوجز الحديث عن أسرته ، وعن شباب

الأمير فى بلاط سيف الدولة ، وحرب الروم وولايته منبج ، ثم عن أسره ، وهو يرى أنه أسر مرتين ، وذلك ما سبق أن ذكرنا ضعفه ، وتحدث بعدئذ فى إيجاز أيضا ، عن قتل أبى فراس ، ومرجعه فى كل ما ذكرناه ، الثعالبى وابن خلكان .

تعرض الكاتب بعدئذ لأبى فراس الشاعر ، فتحدث عن ديوانه وجامعه ، ثم أخذ فى معالجة فنون شعره من فخر ووصف ، وأوجز فى ذلك ، حتى إذا وصل إلى العواطف ، والحديث عنها غالى ، وقال : « لا غرو إن سمينا أبا فراس شاعر العواطف ، فهو أخلص شاعر عرفته الآداب العربية ، وأصدق شاعر فى تصوير إخلاصه ، لا يستثنى من جمهورهم أحد » .

وهذا حكم فيه مبالغة ، و إذا كان الشاعر قد أجاد غاية الجودة فى قصائده : الروميات ، ففيره من الشعراء أوفر منه حظا ، وأقوى تعبيراً عن عاطفة الحب مثلا . ودرس فؤاد بعد ذلك شعره فى الأسر درساً مجملا ، و ينتهى به الدرس ، إلى موافقة الصاحب بن عباد فى حكمه على الشاعر .

وفى مقتطف نوفمبر وديسمبر سنة ١٩٢٩ ، نشر الأستاذ كامل كيلانى مقالين : حدثنا فيهما عما كان بين المتنبى وأبى فراس ، من نفار وخصومة ، وقد عالج فى المقال الأول أسباب هذه الخصومة ، وأجاد فى بيان هذه الأسباب ، وفى المقال الثانى رسم هذه المناظرة التى دارت ، عندما أنشد المتنبى قصيدته الميمية ، والأستاذ يقبل القصة التى أنشئت حول هذه القصيدة ، وقد قلنا إن أكثر المؤرخين على أن القصة فى تفصيلاتها لم تقع ، ولكنها تلقى شعاعا من الضوء على ما حدث فى مجلس سيف الدولة .

وكتب الأستاذ سامى الكيالى فى كتابه : سيف الدولة وعصر الحمدانيين — دراسة لأبى فراس فيها تحقيق ومحاولة للوصول إلى الحق ، وقد أكمل خيال المؤلف ما أعوزه من حوادث التاريخ ، كما أنه حلل مزدوجته الطردية تحليلا جيداً .

ولعل أوسع دراسة ظهرت له إلى اليوم ، هى تلك التى كتبها السيد العاملى ، وقد تحدث فيها عن حياته وشعره ، ووازن بينه و بين المتنبى ، وذكر مجموعة كبيرة من شعره .

وفى الفصل الذى خصــه به بطرس البستانى فى كتابه : أدباء العرب (ص ٤٠٥) تحدث عن منزلته فقال : « فضلوه على ابن المعتز ، و بين هذين الشاعرين شبه ، فـكلاهما ملك ، قال الشعر متلهيا لا متـكبسا ، ونظمه فى الفخر ، والغزل ، والإخوانيات : إلا أن حياة ابن المعتز كانت راحة ورخاء ، فأكثر من وصف الرياض والحدائق ، ومجالس اللهو ، وغدوات الصيد ، فغلبت الصنعة على شعره ، وكانت حيـــاة أبى فراس حربا وأسرا ، فأجاد الفخر والحماسة ، وأبدع فى رومياته ، وغلبت على شعره العاطفة ، لأنه لم يتكلفه تكلفاً ، و إنما جرى به طبعه الصحيح ، وهو فى أشد حالات التأثر ، محارباً كان أو أسيراً .

واستسلامه إلى العاطفة المطلقة ، جعل فى خياله ضيقاً ، فلم ينفسح له مجال التصوير والتزيين ؛ فقد كان يصف حالته فى الأسر ، كما يحسها و يشعر بها ، لا كما تجسمها المخيلة وتوسعها ؛ وكان يصف الحروب، و يذكر الوقائع ، دون أن يلجأ إلى الخيال؛ لتلوينها وتعظيمها ، فعل المتنبى ، فصوره الخيالية قصيرة الخطى ، قريبة المدى . ولـكنها لطيفة محببة .

وتمتاز لغته بحسن اختيار الألفاظ وجمال التعبير ، ففيها الجزالة ، وشدة الأسر فى موضع الشدة ، وفيها الرقة والسهولة فى موضع الحنو .

وجدير بنا أن ننصف أبا فراس فنقول : إنه أشعر المولدين فى حماسياته ، وأشعر الناس فى رومياته ، وشاعر العاطفة فى كليهما ، وهو الشاعر الملك ، والملك الفارس ، والفارس الأسير » .

وكتب الأستاذ على الجارم بك ، قصة عن أبى فراس (سلسلة اقرأ رقم ٣٤ سنة

١٩٤٥م) وهى قصة خيالية ، بناها على حب خيالى ، بين الأمير ونجلاء الخالدية ، وقد اخترع كاتبها شخصيات ، لا صلة بينها و بين التاريخ ، والقصة شائقة حقاً ، وإن كنت أفضل بناء هذه القصص على الحقائق الثابتة . وإن فى تاريخ أبى فراس الحقيق ما يصح أن تدور حوله أروع المآسى ، فموت أبيه وهو طفل ، وحبه لإحدى قريباته ، كما رجحنا ، وتطلبه معالى الأمور ، وأسره بالقسطنطينية ، ومأساة قتله ، كل ذلك مما يجد فيه الكاتب ، مادة خصبة ، للخيال الذى يصور شاعر بنى حمدان ، ويجلو شخصيته ، ويرسم عصره .

هذا فضلا عما فيها من قلة تحقيق ، فى ذكر التواريخ ، فهى تدعى أن أبا فراس قد تركه أبوه فى غضارة الطفولة ، يتعثر فى سنوانه السبع ، والصحيح أنه لم يعد الثالثة من عمره ، كما أنها تدعى أنه سافر إلى حلب سنة ٣٣٦ ، حين كان عمره ثمانية عشر عاما ، وهذا غير صحيح ، لأنه ولد فى سنة ٣٢٠هـ .

* * *

فى دائرة المعارف الإسلامية ، التى تنقل إلى العربية ، ترجمة لأبى فراس ، كتبها الأستاذ بروكلمان ، وهى فصل قصير مركز ، شأن ما يكتب فى دوائر المعارف ، أوجز فيه حياة الشاعر ، وجمع بعض أخباره ، وختمه بهذا الحكم : « وتمتاز أشعاره بطابع شخصيته القوى الواضح ، وهى أقرب ما تكون إلى اليوميات ، ولو أنها لا تختلف فى أسلوبها عن أشعار معاصريه ، وهى ليست فى قوة أشعار المتنبى » . والكاتب يعترف بشخصية الشاعر القوية الواضحة ، ومعنى أن أشعاره أقرب ما تكون إلى اليوميات ، أن الشاعر قد سجل فى شعره إحساساته اليومية المتقلبة ، بين الألم والسرور ، واليأس والأمل .

وأخيراً يرى الكاتب أن أشعار المتنبى ، أعظم روعة من أشعار أبى فراس ، ولست أدرى إن كان نقل مترجمى دائرة المعارف صحيحاً ، لأن المستشرق بلاشير ، فى كتابه عن المتنبى (ص ٣٣٠) ينقل أن بروكلمان فى دائرة المعارف ، يضع

أبا فراس فوق المتنبي ، وهـــذا نص عبارته : Comme Von Kremer , Brockelmann met Abou Firas bien au-dessus d' About-Tayyib.

وتعرض للحكم على هذا الشاعر قبل بروكلمان ، فون كريمر ، وقد عقد موازنة بينه و بين أبي الطيب ، وعنده أن ديوان المتنبي مباين تمام المباينة لديوان أبي فراس، من حيث صدور هذا من ينبوع النفس ، ومن حيث رقة العاطفة والبساطة ، و يظل ديوان المتنبي أقل كثيراً من ديوان أبي فراس .

وفي الترجمة الموجزة التي كتبها المستشرق إيوارت Huart في كتابه : الأدب العربي ، ألم المؤلف بمجمل حياته ، ثم يختم الترجمة بهذه العبارة : « كان أبو فراس محاربا شجاعاً ، تخلو أشعاره من التعجرف والادعاء ، وتنبع من شعور حقيقي صريح ، في لغة نبيلة رفيعة ، وهي تـكون يوميات حياته المضطربة » .

وفي مقدمة ديوان أبي الفرج الدمشقي المشهور بالوأواء ، يفضل المستشرق كراتشكوفسكي Kratchkowsky أبا فراس على المتنبي ، لأنه أكثر بساطة في أسلوبه ، وأغنى منه في التعبيرات التي يمليها القلب .

وقد تعرض المستشرق بلاشـير R. Blachere لأبي فراس في مواضع عدة من كتابه عن المتنبي ، وهو يرى شعره شعرا حقيقياً ، عميقاً في إنسانيته ، وقد أجمل تاريخ حياته ، ولاحظ أن حادث قتل أبيه ، وهو صغير ، قد طبع حياته بطابع حزين ، لم تستطع السنون إلا أن تزيده ، حتى إذا انتهى المستشرق إلى حديث أسره قال : « لقد نظم في الأسر هذه القصائد المعروفة بالروميات ، وهي ، ببساطتها وتناسقها ، وما تنبع عنه من إلهام إنساني خالص ، و إحساس ذاتي محض ، تجعل من أبي فراس شاعراً فريداً في عصره ، بل في كل عصور الأدب العربي» . (ص ١٣٦) كما تحدث المستشرق أيضا عن العلاقة العدائية ، التي كانت بين أبي فراس والمتنبي (ص ١٤٢) ، والشعر الذي سجل فيه انتصارات ابن عمه سيف الدولة .

وعقد الدكتور سامى الدهان فصلا [١] أجمل فيه مدى صلة الغربيين بأبى فراس : فمنهم من اختار بعض قصائده ، وترجمها ، وجمع فى إيجاز ماقاله المؤرخون عنه ، كما فعل فريتاج Freytag سنة ١٨١٩ . ومنهم من نقل ما كتبه عنه صاحب اليتيمة ، وناقشه ، كما فعل ديتريسى Dieterici سنة ١٨٤٧ . ومنهم من درس تاريخ حياته مثل شلمبرجر Schlymberger سنة ١٨٩٠ ومنهم من درس شعره وديوانه ، كدفوراك (Dvorak) سنة ١٨٩٤ .

(١) المجلد الأول ص ٣٠ من ديوان أبى فراس .

خاتمـــة

و بعد ، فهذه حياة أمير ، ولد فى أسرة طامحة ، لأب يرنو إلى الإمارة والملك ، استقبل الحياة منذ طفولته يتيما ، ولـكنه استعاض من اليتم ، رعاية أمير أحبه ، وعطف عليه ، ونشأه على خير ما ينشأ عليه الأمراء ، فخرج قائدا شجاعا ، خاض غمار شتى المعارك ، وصادفه سوء التوفيق فى إحداها ، فأسر ، وظل مدة طويلة ، بعيدا عن أهله و بلاده ، ولم يـكد يخرج من الأسر ، حتى تحرك فيه طموح ورثه ، وكان سبب مصرعه .

وقد سجل فى شعره خواطره ، ونزعات نفسه ، منذ الصبا ، وامتاز فى الأدب العر بى كله ، بهذه الروميات التى قالها فى الأسر ، واتخذها متنفسا ، يشكو إليه بثه وآلامه .

ولم أقف له عند مؤرخيه ، على صورة حسية ، اللهم إلا ما نقله بطرس البستانى ، من أنه كان طويلا بدينا ، ولـكنى ألمح فى شعره ، أنه كان قسيما ، حتى ساغ له أن يلقب نفسه بزين الشباب ، و إن كان قد قلل من هذه القسامة ذلك الشيب ، الذى جلل رأسه منذ عصر مبكر ، ور بما أنقص منها كذلك ، أثر سنان ، أصاب خده ، فى إحدى المعارك .

هذا ، و إنى أرجو أن أكون قد جلوت للشاعر صـورة قريبة من الحق ، ترسم نفسه وشعره .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

حلوان الحمامات فى ١٢ ديسمبر سنة ١٩٤٩ م .

مراجع البحث

أبو فراس : ديوان أبي فراس — نشره الدكتور سامي الدهان . طبع بيروت سنة ١٣٦٣ هـ (١٩٤٤ م) .

أحمد أمين : ظهر الإسلام ج ١ ، طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٣٦٤ هـ (١٩٤٥ م) .

أحمد الزين : مجلة الثقافة . السنة الأولى ، سنة ١٩٣٩ م ، ص ٤٥ ، ٤٦ .

أحمد الكنانى الأبيارى : إيناس الجلاس بتشطير وشرح قصيدة أبي فراس. طبع مصر .

أحمد بن محمد بن خلكان : وفيات الأعيان . المطبعة الميمنية بمصر سنة ١٣١٠ هـ .

بروكلمان :دائرة المعارف الإسلامية ، المجلد الأول ص ٣٨٧ .

بطرس البستانى : أدباء العرب ، ج ٢ طبع بيروت سنة ١٩٣٤ م .

جرجس بن العميد . تاريخ المسلمين . طبع ليدن سنة ١٦٢٥ م .

جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية . مطبعة الهلال سنة ١٩٢٠م .

زكى مبارك : الموازنة بين الشعراء . القاهرة سنة ١٩٣٦م .

سامى الكيالى : سيف الدولة وعصر الحمدانيين . المطبعة الحديثة ، حلب سنة ١٩٣٩ م .

السيد محسن العاملى : أبو فراس الحمدانى . بيروت سنة ١٩٤١ م .

طه حسين : مع المتنبى . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٦ م.

عبد الحى بن العماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب . عنى بنشره حسام الدين المقدسى سنة ١٣٥٠ هـ .

عبد الملك الثعالبى النيسابورى : يتيمة الدهر . الطبعه الاولى . مصر سنة ١٣٥٢ هـ (١٩٣٤ م) .

عبد الوهاب عزام : ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام . مطبعة الجزيرة . بغداد سنة ١٣٥٥ هـ (١٩٣٦ م) .

على بن محمد بن الأثير : الكامل فى التاريخ . المطبعة الأزهرية المصرية . الطبعة الأولى سنة ١٣٠١ هـ .

فؤاد أفرام البستانى : مجلة المشرق سنة ١٩٢٨ م من ص ٢٦٥ — ٢٧٤ .

كامل فريد : طراز الأدب . طبع القاهرة سنة ١٩٢٥ م .

كامل كيلانى : صور جديدة من الأدب العربى . طبع مصر سنة ١٣٥٨ هـ (١٩٣٩ م) .

المتنبى : ديوان المتنبى . طبعة هندية سنة ١٣٤٢ هـ (١٩٢٣ م) .

محمد الخضرى : محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية . طبع مصر . سنة ١٣٣٩ هـ (١٩٢١ م) .

محمود سامى البارودى : ديوان البارودى . شرح محمود الإمام .

يوسف البديعى : الصبح المنبى عن حيثية المتنبى . مطبعة الاعتدال سنه ١٣٥٠ هـ .

Clement Huart : Littérature Arabe. Paris' 1931.
R. Blachére : Un Paéte Arabe de Xéme Siécle.

[تم طبع كتاب « شاعر بنى حمدان » فى مطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة فى يوم ١٥ من رمضان سنة ١٣٧١ هـ الموافق (٨ من يونيه سنة ١٩٥٢ م) والحمد لله أولا وآخراً] .

السيد محفوظ كامل

المدير الفنى للمطبعة

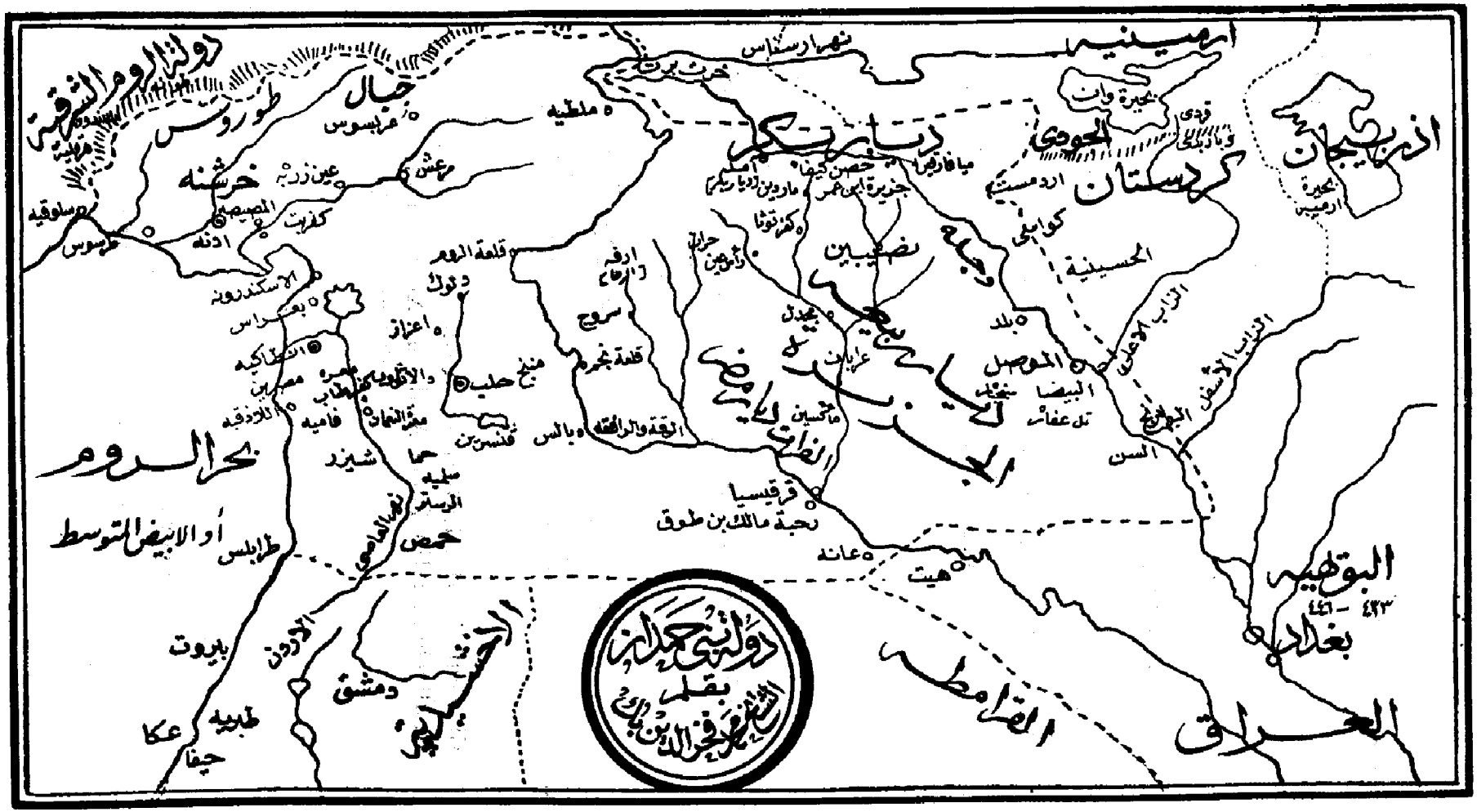

دولة بني حمدان
بقلم
الشيخ محمد فخر الدين بك
دولة الروم الشرقية
طوروس
جبال
خرشنه
ملطيه
عربسوس
مرعش
عين زربه
المصيصه
اذنه
كفربيت
سلوقيه
طرسوس
الاسكندرونه
بغراس
انطاكيه
اعزاز
دلوك
قلعة الروم
حلب
منبج
الاثارب
معرة مصرين
اللاذقيه
فاميه
معرة النعمان
قنسرين
بالس
شيزر
حما
سلميه
الرستن
حمص
نهر العاصي
بحر الروم
أو الابيض المتوسط
طرابلس
بيروت
طبريه
عكا
حيفا
دمشق
الاردن
سروج
ارفه
قلعة نجم
الرقة والرافقة
حران
راس عين
كفرتوثا
نصيبين
ديار بكر
ديار ربيعه
ديار مضر
الفرات
ميافارقين
حصن كيفا
جزيرة ابن عمر
ماردين
بلد
الموصل
البيضا
تل عفاء
قرقيسيا
رحبة مالك بن طوق
عانه
هيت
دجلة
الجزيرة
الحسينية
كواشي
اردمشت
كردستان
الحوزي
بحيرة وان
ارمينية
اذربيجان
بحيرة ارميه
الزاب الاعلى
الزاب الاسفل
السن
البويهيه
٤٤٣ - ٤٢١
بغداد
العراق
القرامطه

الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	الإهداء	١١٠	الغزل
٥	مقدمة	١١٨	الوصف
٦	عصر يضطرب	١٢٢	أرجوزته فى الصيد
١٠	بنو حمدان	١٢٧	الشكوى والعتاب
١١	أسرة تنهض	١٢٨	الرثاء
١٩	يتيم	١٣٢	الحكمة
٢٦	بيئة مثقفة	١٣٦	المدح
٣١	نفسيته	١٣٧	الإخوانيات
٤٤	صلته بأسرته	١٤٠	ديوانه
٤٧	صلته بسيف الدولة	١٤٨	بينه و بين المتنبى
٥٤	فى الأسر	١٧١	عيد حزين بين ثلاثة من الشعراء
٨١	موت أمه	١٧٥	رائيته فى الشعر المعاصر
٨٣	تشيعه	١٨١	أبو فراس بين نقاد العرب والمستشرقين
٨٨	خاتمة المطاف		
٩٢	شعره	١٩١	خاتمة
١٠٢	أغراض شعره	١٩٢	مراجع البحث
١٠٤	الفخر	١٩٣	مصور للدولة الحمدانية

للمـــؤلف

(أ) تأليف :

١ — شاعر بنى حمدان . (دراسة تفصيلية لأبى فراس الحمدانى) .

٢ — رفاعة الطهطاوى بك . (نال الجائزة الأولى ، فى المسابقة الأدبية ، لمجمع فؤاد الأول للغة العربية ، سنة ١٩٥٠ م) .

٣ — من بلاغة القرآن .

٤ — الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية ، بمصر والشام .

٥ — الحياة الأدبية فى عصر الحروب الصليبية ، بمصر والشام . [تحت الطبع]

٦ — عصر الحروب الصليبية ، بمصر والشام . (يتناول الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والحربية) . [تحت الطبع] .

(ب) تحقيق :

١ — ديوان القاضى الفاضل . [تحت الطبع] .

٢ — ديوان المعتمد بن عباد . (بالاشتراك) .

٣ — ديوان أسامة بن منقذ . (بالاشتراك) .

٤ — المطرب من أشعار أهل المغرب . (بالاشتراك) .

٥ — البديع فى نقد الشعر ، لأسامة بن منقذ . (بالاشتراك) . [تحت الطبع] .

(جـ) ترجمة .

ديوان المتنبى ، فى العالم العربى ، وعند المستشرقين .

(القسم الثانى من كتاب المتنبى ، للمستشرق : الدكتور بلاشير) .